

الفصل الثاني

أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية

تمهيد

المبحث الأول: الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية

١. الجمعيات الماسونية في البلاد العثمانية
٢. الدعوة إلى القومية التركية
٣. تأمر الدول الغربية على الدولة العثمانية
٤. الاستعمار العسكري
٥. التنظيمات الجاهلية في الدولة العثمانية

المبحث الثاني: الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية

١. دور البعثات العلمية في نشأة الجمعيات
٢. دور كتابات بعض دعاة الفكر القومي
٣. دور الصحافة في نشأة الجمعيات
٤. دور نصارى العرب في نشأة الجمعيات

الفصل الثاني

أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية

تمهيد:

وبعد التعريف بنشأة الجمعيات القومية ، وعرض المنهج القومي الذي سلكته في المجتمعات الإسلامية، نذكر في هذا الفصل أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية.

من خلال تتبع المراجع التي ترجمت الجمعيات القومية، وبدراسة مناهج وتنظيم تلك الجمعيات، يظهر للدارس أن هذه الجمعيات القومية العربية لم تظهر في الأمة الإسلامية بدون سبب، وإنما يقطع الباحث في تاريخها ، أن ظهور الجمعيات القومية العربية في واقع المجتمعات الإسلامية؛ كانت لأسباب وعوامل قد تكون أساسية أو فرعية خضع لها المجتمع العربي خلال فترة معينة، فكانت سبباً لنشأة هذه الجمعيات.

ويمكن حصر هذه الأسباب في قسمين:

القسم الأول: أسباب أساسية.

القسم الثاني: أسباب فرعية.

المبحث الأول

الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية

السبب الأول: الجمعيات الماسونية في البلاد العثمانية.

قبل الحديث عن المحافل الماسونية ودورها في تأسيس الجمعيات القومية، سأورد تعريفاً موجزاً بالماسونية، والتي تعد من أخطر الجمعيات السرية، ثم أنقل الحكم الشرعيّ في المحافل الماسونية والانتساب إليها وخطرها على الأمة.

أما التعريف بالماسونية فهي: تعني (Free Mason) أي البناء الحر، وهي من أقدم الجمعيات السرية التي مازالت قائمة حتى عصرنا الراهن، وكثير من الكتابات تختلف في تاريخ نشأة الماسونية وذلك بسبب سريتها، ولأنها جمعية ذات فروع ومجالات وميادين متعددة ومتشعبة في مختلف العالم^(١).

(١) عن تاريخ نشأة الماسونية انظر:

- ١ — تاريخ الماسونية العام- جرجي زيدان- ٨٨-٨٩- مطبعة المحروسة- مصر- ١٨٨٩.
- ٢ — الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية- شاهين مكاربوس- ١٨٢- مطبعة المقتطف- مصر- ١٨٩٧.
- ٣ — الماسونية عقيدة المولد وعار النهاية- محمود الشاذلي- مكتبة وهبة- مصر.

ومقصودُ هذه الجمعيات المختلفة واحدٌ وهو القضاء على الدين، ولهذا كان هناك ارتباط اليهود بالمعتقد الماسوني، ويصرح أعضاء المحافل الماسونية بانتساب الماسونية لليهود، فيقولون: (إن الماسونية يهودية، وهذا ما لاشك فيه)^(١).

ويقول الحاخام اليهودي إسحق وايزمن عن الماسونية: إنها مؤسسة يهودية وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكاراً يهودية من البداية إلى النهاية^(٢).

ومن أبرز أهداف الماسونية القضاء على الدين ونشر الإلحاد، فيقول شاهين مكارايوس الماسوني: (إننا نؤكد أن الماسون يعتبرون الأديان كلها خرافة متساوية). كما تؤكد المحافل الماسونية أنها تتجاهل الفوارق الدينية والجنسية، وأن دينها العقل المحرر من شوائب الأديان^(٣) — كما يقولون —.

وقد قام زعماء الماسونية من اليهود عام ١٧٧٦ (١١٨٩هـ) بإعداد مخطط على أسس حديثة نظموا من أجل السيطرة على العالم عن طريق فرض عقيدة الإلحاد، ويحقق هذا المخطط الأهداف التالية:

١. تدمير جميع الحكومات الشرعية وتقويض الأديان السماوية.
٢. تقسيم البشر إلى معسكرات متنازعة فيما بينها بشكل دائم حول عدد من المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعنصرية.

(١) دائرة المعارف الماسونية المصورة-الماسوني: حنا أبي راشد-٢٤-مكتبة الفكر العربي-بيروت-لبنان.

(٢) اليهودية-أحمد شلي-٣٢٦-مكتبة النهضة المصرية-القاهرة-الطبعة السابعة-١٩٨٤.

(٣) دائرة المعارف الماسونية-٨٠.

٣. بث سموم الشقاق والنزاع داخل البلد الواحد وتمزيقه إلى فئات متناحرة وإشاعة الحقد فيه، وتقويض دعاماته الأخلاقية والدينية والمادية.

وقد نصت مضابط المحفل الماسوني الأكبر عام ١٨٩٧ (١٣١٤هـ): لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونية لأن الذي ينخرط في المحافل يجب أن يكون حراً، والماسوني الحقيقي لا يكون متديناً، وعلى الماسونية أن تتفق مع أولئك الذين لا يدعون إلى الدين أمثال الاشتراكيين والديمقراطيين، ودعاة حقوق الإنسان والجمعيات المتحررة الأخرى، وعليها أن تشترك في المجالات الأخرى للعمل كالجامعات الشعبية والمدارس السياسية والمؤسسات الأخرى^(١).

ولخطورة هذه المبادئ على عقيدة المسلمين، فقد صدر القرار من الجمع الفقهي في مكة المكرمة حكماً شرعياً حول الماسونية والانتماء إليها، ونص القرار ما يلي:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

(١) اليهودية والماسونية- عبدالرحمن الدوسري-٤٣ و٤٧- دار السنة-الرياض-الطبعة الأولى-١٤١٤ هـ وانظر:

١. الماسونية والماسونيين في الوطن العربي-حسين حماده.
٢. الماسونية ذلك العالم المجهول-صابر طعيمة.
٣. الماسونية في العراق-محمد الزغبي.
٤. أسرار الماسونية-جواد رفعت.

نظر المجمع الفقهي في دورته الأولى المنعقدة بمكة المكرمة في ١٠/٨/١٣٩٨هـ، الموافق ١٥/٧/١٩٧٨م في قضية الماسونية والمنتسبين إليها، وحكم الشريعة الإسلامية في ذلك.

وقد قام أعضاء المجمع بدراسة وافية عن هذه المنظمة الخطيرة، وطالع ما كتب عنها من قديم وجديد، وما نشر من وثائقها نفسها فيما كتبه ونشره أعضاؤها وبعض أقطابها، من مؤلفات ومن مقالات، في المجالات التي تنطق باسمها.

وقد تبين للمجمع في صورة لا تقبل الريب من مجموع ما اطلع عليه من كتابات ونصوص، ما يلي:

١- إن الماسونية منظمة سرية، تخفي تنظيمها تارة، وتعلنه تارة بحسب ظروف الزمان والمكان، ولكن مبادئها الحقيقية التي تقوم عليها هي سرية في جميع الأحوال، محجوبٌ علمُها حتى على أعضائها إلا خواص الخواص الذين يصلون بالتجارب العديدة إلى مراتب عليا فيها.

٢- إنها تبني صلة أعضائها بعضهم ببعض في جميع بقاع الأرض على أساس ظاهري للتمويه على المغفلين، هو الإخاء الإنساني المزعوم بين جميع الداخلين في تنظيمها، دون تمييز بين مختلف العقائد والنحل والمذاهب.

٣- إنها تجتذب الأشخاص إليها ممن يهتمها ضمهم إلى تنظيمها بطرق الإغراء بالمنفعة الشخصية، على أساس أن كل أخ ماسوني مجتهد عون كل أخ ماسوني آخر في أي بقعة من بقاع الأرض، يعينه في حاجاته وأهدافه

ومشكلاته، ويؤيده في الأهداف إذا كان من ذوي الطموح السياسي ويعينه إذا وقع في مأزق من المآزق أياً كان، على أساس معاونته في الحق والباطل ظالماً أو مظلوماً، وإن كانت تستر ذلك ظاهرياً، بأنها تعينه على الحق والباطل، وهذا أعظم إغراء تصطاد به الناس من مختلف المراكز الاجتماعية.

٤- إن الدخول فيها يقوم على أساس احتفال بانتساب عضو جديد تحت مراسم وأشكال رمزية إرهابية لإرهاب العضو إذا خالف تعليماتها، والأوامر التي تصدر إليه بطريق التسلسل في الرتبة.

٥- إن الأعضاء المغفلين يُتركون أحراراً في ممارسة عباداتهم الدينية، وتستفيد من توجيههم وتكليفهم في الحدود التي يصلحون لها، وييقون في مراتب دنيا، أما الملاحظة أو المستعدون للإلحاد فترتقي مراتبهم تدريجياً في ضوء التجارب والامتحانات المتكررة للعضو، على حسب استعداده لخدمة مخططاتها ومبادئها الخطيرة.

٦- إنها ذات أهداف سياسية، ولها في معظم الانقلابات السياسية والعسكرية والتغييرات الخطيرة ضلع وأصابع ظاهرة أو خفية.

٧- إنها في أصلها وأساس تنظيمها يهودية الجذور، ويهودية الإدارة العليا العالمية السرية، وصهيونية النشاط.

٨- إنها في أهدافها الحقيقية السرية ضد الأديان جميعاً لتهدمها بصورة عامة، وتهدم الإسلام في نفوس أبنائه بصورة خاصة.

٩ — إنها تحرص على اختيار المنتسبين إليها من ذوي المكانة المالية أو السياسية أو الاجتماعية العلمية أو أية مكانة يمكن أن تستغل نفوذها لأصحابها في مجتمعاتهم، ولا يهملها انتساب من ليس له مكانة يمكن استغلالها، ولذلك تحرص كل الحرص على ضم الملوك والرؤساء والوزراء وكبار موظفي الدولة ونحوهم.

١٠ — إنها ذات فروع تأخذ أسماء أخرى تمويهاً وتحويلاً للأنظار، لكي تستطيع ممارسة نشاطاتها تحت مختلف الأسماء إذا لقيت مقاومة لاسم الماسونية في محيط ما، وتلك الفروع المستورة — بأسماء مختلفة، من أبرزها منظمة الأسود (الليونز)، والروتاري — إلى غير ذلك من المبادئ والنشاطات الخبيثة، التي تتنافى كلياً مع قواعد الإسلام وتناقضه مناقضة كلية.

وقد تبين للمجمع بصورة واضحة العلاقة الوثيقة للماسونية باليهودية الصهيونية العالمية... لذلك ولكثير من المعلومات الأخرى التفصيلية عن نشاطات الماسونية وخطورتها العظمى، وتليساتها الخبيثة، وأهدافها الماكرة، يقرر المجمع الفقهي اعتبار الماسونية من أخطر المنظمات الهدامة على الإسلام والمسلمين، وأن من ينتسب إليها وهو على علم بحقيقتها وأهدافها فهو كافر بالإسلام بجانب لأهله. والله ولي التوفيق^(١).

ولقد سبق الحديث في الفصل الأول عن علاقة بعض أعضاء الجمعيات القومية بالمحافل الماسونية، وبيان أسماء المحافل الماسونية في البلاد العربية^(٢).

(١) جريدة أخبار العالم لإسلامي-تاريخ ١١/٦/١٣٩٩هـ.

(٢) انظر: ص (٣٧) من الرسالة.

وفي هذا المبحث سأبين أن المحافل الماسونية والتي أنشئت في البلاد العربية كانت من الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية العربية، حيث شكلت المحافل أطراً لتبادل الأفكار القومية التحررية من الدين ونشرها.

لقد أكد الباحثون في تاريخ الماسونية في الوطن العربي أن الماسونية قد وجدت طريقها إلى سوريا. واشترك فيها الكثير من أعضاء الجمعيات القومية، حيث رأوا أن انتسابهم إلى المحافل الماسونية فيه كل الخير لقضيتهم^(١) كما واهتمت المحافل الماسونية بشاغلي الدرجات الرفيعة في الجمعيات القومية العربية^(٢).

ويمكن حصر تأثير وإملاء الأسس الماسونية على نظم ومبادئ الجمعيات القومية العربية في القرن الرابع عشر، بما يلي:

أولاً- تزعم بعض أعضاء الجمعيات القومية رئاسة وتأسيس محافل الماسونية:

سبق الإشارة في الفصل الأول من الباب الأول بيان بعض أسماء المحافل الماسونية في الوطن العربي، وقد تزعم بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية رئاسة المحافل الماسونية، ومنهم:

١. عادل أرسلان - أحد أعضاء المنتدى الأدبي -^(٣) شارك في رئاسة المحفل الأكبر الوطني السوري اللبناني^(٤).

(١) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده-١٧٧.

(٢) بقظة العرب-جورج انطونيوس-٧٩-الطبعة الغير معربة.

(٣) انظر: ذكرياتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-١٢٦.

(٤) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده-١٥٧.

٢. فارس الخوري: من مؤسسي جمعية بيروت السرية^(١)، فقد كان من أعضاء المحفل الاسكتلندي، وهو من أقدم محافل الماسونية في سوريا ولبنان^(٢).

٣. إلياس حبالين: وقد شارك في محافل الماسونية في سورية^(٣).

٤. عبدالرحمن الشهبندر: من أعضاء المنتدى الأدبي^(٤) وقد كان من أعضاء المحفل الاسكتلندي في دمشق^(٥).

٥. محمد جميل بيهم: من المؤسسين للجمعيات القومية قد تولى رئاسة المحفل الماسوني في لبنان عام ١٩٢٤^(٦).

٦. سعيد الجزائري: الذي حصل على لقب القطب الأعظم^(٧) وكان من أبرز دعاة القومية العربية، فكان أول من نادى في دمشق بالثورة العربية^(٨).

وقد ضمت محافل الماسونية بعض زعماء القوميين، مثال ذلك: نوري السعيد، توفيق السويدي، وأديب الشيشكلي^(٩).

(١) انظر: نشوء القومية العربية- زين نور الدين زين-٦٠.

(٢) الماسونية ذلك العالم المجهول-عبدالخليم الياس الخوري-٥٤.

(٣) جريدة المقتطف الجزء ٣٦-٢٥٠-٢٧٠-مارس ١٩١٠. وانظر العرب والترك-توفيق برو-٤٣.

(٤) انظر الترجمة رقم (٤٢). وانظر: مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-١٢٦.

(٥) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده-١٦٣.

(٦) انظر الترجمة رقم (٦٠). وانظر: مقدمة كتاب فلسفة تاريخ محمد ﷺ-حسان حلاق-١٣.

(٧) انظر الترجمة رقم (٢٩). وانظر: الماسونية مالها وما عليها ماضيها وحاضرها-سعيد الجزائري-٣٥٤.

(٨) جهاد نصف قرن الأمير سعيد آل عبدالقادر الجزائري-أنور الرفاعي-٩٨.

(٩) انظر الترجمة رقم (٣). وانظر: الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده-١٦٨.

ويؤكد من كتب عن رموز الحركة العربية الحديثة، أن أعضاء الجمعيات القومية العربية قد نظموا صفوفهم مستفيدين من الأنظمة الماسونية السرية، فأخذوا يؤسسون الجمعيات السرية على غرار تلك الأنظمة مقتبسِينَ بعض طقوسها للمحافظة على سريتها، حتى يمكن القول بحق كما قيل يوماً في فرنسا بأن تاريخ النهضة العربية هو تاريخ الجمعيات السرية التي أسسها متعصبون لقوميتهم دفاعاً عنها ورداً على تحدي دعاة القومية التركية^(١).

ويذكر الباحث (نجدة صفوت) أنه حصل على إحدى القوائم بأسماء الماسونيين في العراق، ووجد فيها أن المنتمين للماسونية جميعهم من الطبقة السبوجوازية والعليا في المجتمع العراقي، وبينهم ٣٥ وزيراً ورئيس وزراء سابق على الأقل، وعدد من الشخصيات البارزة التي احتلت مراكز هامة في الدولة، وعدد من كبار ضباط الجيش^(٢).

وقد قال السفير البريطاني جيرارد لاثر: (إن بعض نواب المعارضة وخاصة العرب منهم، أدركوا بأنهم أصبحوا مبعدين عن مصادر السلطة وخارج تيار الأسرار السياسية والمؤتمرات المحلية، فبدؤوا ينشئون لهم محافل ماسونية خاصة بهم، أو ينضمون إلى المحافل القائمة)^(٣).

ومما أكده الباحثون عن تاريخ تأسيس المحافل الماسونية أن الانتساب إلى المحافل الماسونية كان يخص الفئة التي تشربت أفكار الثورات الأوروبية فقط، وأما

(١) الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام) - عدنان الخطيب - ١٣٣-١٣٤.

(٢) الماسونية في الوطن العربي - نجدة صفوت - ٥٤.

(٣) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي - حسين حماده - ١١٣.

العامّة فيصف أحد أعضاء الجمعيات والمنتسب إلى المحافل الماسونية، موقفهم منها، فيقول: ..أما العامّة فلا تسأل عما غرس في أذهانهم من الكره والاحتقار لجماعة الماسون حتى أصبح اسمهم مرادفاً لأدنى صفات الاحتقار عندهم، فكانوا إذا أرادوا المبالغة في وصف أحد الكفرة أو المنافقين لا يجدون أنسب من قولهم (فارماسون)^(١) وهذا مما يجعل من ينتسب إلى هذه المحافل أن يكتم أمره عن الناس.

وقال محمد كرد علي^(٢): (قَلَّ أَنْ رَأَيْتُ مَوْظِفاً كَبِيراً لَمْ يَدْخُلِ الماسونية، ومعظم من انضموا إلى حظيرتها عندما كانوا من الطامعين في حمايتها)^(٣).

وانتساب الفئة التي تشربت الثقافة العلمانية في المحافل الماسونية قد ذكرها السلطان عبدالحميد في مذكراته، — الذي كان على علم بالمحافل الماسونية وأهدافها في الدولة العثمانية —، فقد قال في مذكراته عن المحافل الماسونية: (إنهم يحاولون بحماس زائد نشر أفكار تجديدية لا يفهمها الناس.. والذين يميلون إلى التعاون مع هؤلاء حفنة من الناس بقيت خارج البلاد ردحاً من الزمن فانقطعت عن جذورها، وتثقت ثقافة أوربية سطحية براقّة)^(٤).

(١) السر المصون في شيعة الفرمايون-لويس شيخو اليسوعي-١٤-المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين-بيروت-١٩١٠ وانظر: تاريخ الماسونية-جرجي زيدان-١٩٨٠. وكلمة (فارماسون) كلمة لاتينية، وتعني (البنائون الأحرار). كما ذكرت ذلك: دائرة المعارف الماسونية-حنا أبي راشد.

(٢) انظر الترجمة رقم (٦٣).

(٣) مذكرات محمد كرد علي-١/٣٢٥-نقلا من كتاب الشيخ طاهر الجزائري-عدنان الخطيب-١٣٩.

(٤) مذكراتي السياسية-السلطان عبدالحميد-٧٣.

ثانياً — تشابه في التنظيم والتأسيس:

وعن تأثير المحافل الماسونية في الجمعيات القومية العربية، ظهور التشابه البين في النظم والمبادئ وقد صرح أعضاء الجمعيات بأن للمحافل الماسونية دوراً بارزاً في نشأة الجمعيات القومية، كما قال فارس نمر: إن كثيرين من أحرار سورية النابغين يعترفون بالفضل في خدمة الحرية لرجال العشيرة الماسونية في سورية من مسلمين ومسيحيين. فيا طالما سهروا الليالي وبذلوا الرخيص والغالي لإعداد أبناء سورية لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية^(١).

ويقول شاهين مكاربوس — أحد أعضاء جمعية بيروت السرية —: (في سنة ١٨٨٨ (١٣٠٣هـ) ترأس المحفل الأكبر توفيق باشا^(٢) خديوي مصر، وأتاب عنه حسين فخري باشا. وكان بين سعادة فخري باشا وبيننا مودة فكنا نزوره مراراً في منزله ونتلقى منه التعليمات اللازمة ونزور بصحبته المحافل الوطنية وغيرها، فزهت بمدته الماسونية وكثر عدد أعضائها وكان الخديوي توفيق باشا يود نجاح الماسونية ويشجعها في أعمالها ويهتم في شؤون أعضائها وترقيتهم^(٣)).

(١) مجلة المقتطف - الجزء الثالث - المجلد (٣٦) - سنة ١٣٢٨/١٩١٠ - مقال: النهضة الدستورية - فارس نمر

(٢) محمد توفيق باشا بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، ولد عام ١٢٦٩هـ وتعلم في القاهرة، أكبر أبناء (إسماعيل) تولى الخديوية بعد عزل والده عام ١٢٩٦هـ أنشئ نظام الشورى ومحاكم أهليه، في عصره نشبت الثورة العربية، توفي بالقاهرة عام ١٣٠٩هـ. انظر: الإعلام - الزركلي - ٦/٦٥.

(٣) تاريخ الماسونية القديمة وآثارها - شاهين مكاربوس - ١٤٩ - دار مارون عبود - ١٩٨٤.

فمن أوجه التشابه في النظام بين المحافل الماسونية والجمعيات القومية أن طريقة الانتساب إلى الجمعيات القومية واحدة، ففي نظام الانتساب إلى الجمعيات القومية يلاحظ تطبيق مبدأ السرية، وينص نظام الجمعية بأنه: إذا ما أنس أحد الأعضاء في شخص عربي نزعة وطنية عربية نظير نزعتنا وجب عليه أن يقدم تقريراً حتى إذا ما دُرس الدراسة الوافية واستوثقت الجمعية من أهليته، أصدر القرار بقبول انتسابه مبدئياً، ثم عُهد إلى شخصين هما مُقَدِّمُهُ وأحدُ الأعضاء بدراسة كافة أحواله وملابساته .. ومتى تم هذا كله دعي إلى تأدية القسم أمامهما فقط، وهو لا يعرف من أعضاء الجمعية غيرهما^(١).

وفي تنظيم محافل الماسونية لا يترك أمر الدخول في عضويته عفويًا ولمن شاء فقد كان لزاماً أن يمر العضو الماسوني بمجرد انخراطه في التنظيم الماسوني بمراحل أو بأشكال تنظيمية لاختيار معدن العضو الجديد ومعرفة مدى كفاءته^(٢).

ولقد أولت المحافل الماسونية عناية فائقة بتثقيف أعضائها، وقامت بنشر أفكارها بين الأعضاء على أساس الإخاء والمساواة بين البشر من كل الطبقات دون تمييز للمهنة والقومية والدين^(٣).

هذه هي العقيدة الحقيقية للماسونية، وأما تأسيس الجمعيات القومية العربية فهي قضية مرحلية لتطبيق أهداف الماسونية ولذا أوصت المحافل الماسونية أتباعها،

(١) جمعية العربية الفتاة السرية-سيهلة الريماي-٧٧.

(٢) الآداب الماسونية-شاهين مكاربوس وهو أحد أعضاء جمعية بيروت السرية. انظر: الماسونية ذلك العالم المجهول-صاير طعيمه-١٦١-دار الجليل-بيروت-الطبعة الثانية-١٩٨١.

(٣) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية-الكوثرائي-١١٥.

بأن ينفذوا في صفوف الجمعيات الدينية وغيرها، بل عليهم إن احتاج الأمر أن يقوموا بتأسيس تلك الجمعيات على أن لا تشم منها أي رائحة حقيقية للدين^(١).

ومن أجل هذه التوصيات فقد ظهر في تأسيس الجمعيات القومية أن القوميين اتبعوا مبدأ تأسيس الجمعيات على أسس ماسونية، فجمعية زهرة الآداب — مثلاً — والتي تأسست في بيروت، يقول سليمان البستاني — أحد مؤسسيها —: (فرض شبان البلاد على اختلاف نزعاتهم إلى إنشاء المنتديات وتأليف الجمعيات العلمية والأدبية طلباً للإفادة والاستفادة.. ولا أزال أذكر ذلك اليوم الميمون إذ حدا بيننا هذا الحادي فألفنا جمعية زهرة الآداب في بيروت، وتألفنا عصابة لم يكن فيها أثر لفارق بين مسلم ومسيحي، وسننا قانوناً فجعلنا أول مواده منع التعرض للبحث في الدين والسياسة)^(٢) وجمعية زهرة الآداب تعد من المحافل الماسونية في البلاد العربية^(٣).

ثالثاً — تبني أعضاء الجمعيات القومية المبادئ الماسونية:

إن كثيراً من المبادئ التي دعت إليها الجمعيات القومية العربية تتفق مع المبادئ الماسونية، وسوف أذكر نماذج من أوجه تأثير المبادئ الماسونية على الجمعيات القومية. فمن ذلك ما يلي:

(١) الأجيال المفيدة - عبدالرحمن الدوسري - ١٧٩ - دار الأرقم - الكويت - الطبعة الأولى - ١٤٠٢ هـ.

(٢) عبرة وذكرى - سليمان البستاني - ٥٥ - مطبعة الأخبار - أكتوبر - ١٩٠٨.

(٣) السر المصون في شعبة الفرمايون - لويس شيخو اليسوعي - ٤٦/٢. تأسست سنة ١٨٧٣ وبلغ عدد أعضائها ٤٠ عضواً.

أ - الدعوة للشعار الماسوني:

إن شعار الماسونية (حرية - عدالة - أخوة - مساواة) أصبح دارجاً على مبادئ وأنظمة الجمعيات القومية العربية^(١)، فيقول محمد عزة دروزة عن شعار الماسونية لقد أصبح شعاراً عاماً تردده الأفواه وتوضع به الشعارات الحمراء والبيضاء على الصدور والحوانيت والمؤسسات^(٢).

لقد أصبح الشعار الماسوني ضمن المبادئ القومية التي تناادي بها الجمعيات، فقد قال البارودي^(٣) في مذكراته: (المثقفون من أبناء البلاد - العربية - مشوا مع أحرار الأتراك ينادون مثلهم، ويخطبون ويرشدون إلى تفسير (الحرية والمساواة والعدالة والأخوة) وجدت هذه الكلمات صدى في نفوس الناس، وراح الاتحاديون - جمعية الاتحاد والترقي - ينادون بالإخاء، فيجمعون رجال الأديان المختلفة، ويطلبون إليهم أن يتعانقوا بعضهم مع بعض، ويخطبوا بعد العناق بتأييد هذا الإخاء... قام شبان الأتراك يخطبون باللغة التركية، وخرىجو المدارس العالية من أبنائنا يخطبون باللغة العربية، ومنهم السادة: الإنكليزي^(٤)، والشهبندر^(٥)، وفارس الخوري^(٦). وكانوا يؤثرون على الجماهير بأقوالهم

(١) انظر الاتجاهات الفكرية في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩١٤) علي المحافظة-٩٧-الأهلية للنشر- بيروت-١٩٨٣. (أخوة-حرية-مساواة) هو الشعار الماسوني انظر: دائرة المعارف الماسونية-حنا أبي راشد-٢٥١/١.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة- محمد عزة دروزة-٢٧٧.

(٣) انظر الترجمة رقم (٥٦).

(٤) انظر الترجمة رقم (٤٦).

(٥) انظر: مذكرات عبدالرحمن الشهبندر-دار الإرشاد-بيروت-الطبعة الأولى-١٣٨٦هـ.

(٦) انظر الترجمة رقم (٤٥).

ويسترسلون في الحديث عن الحرية ومعانيها^(١) وجميع من ذكرهم البارودي من أعضاء الجمعيات القومية.

وتفاعل أعضاء الجمعيات القومية مع هذه المبادئ الجديدة وفق المنهج الماسوني، فقد عالج أعضاء الجمعيات موضوع الحرية مثلاً، وكلهم مجمعون على أنها الضالة الحبيبة المنشودة وعرفوها: أنه يباح للمرء عمل كل ما يريد شرط أن لا يؤذي غيره .. وكما سعت الثورة الفرنسية إلى حرية الرأي والعقيدة الدينية والطباعة والخطابة والانتخاب، وحرية التصرف بالأموال وتنظيم الجمعيات.. فقد سعى أعضاء الجمعيات إلى هذه الحريات جميعها وعالجوا قضية المساواة، وفهموها كما فهمتها الماسونية وأقرتها، أي: مساواة أمام قانون واحد يسري على جميع المواطنين، يُمثلون كلهم أمامه لا فرق بين غني وفقير وأبناء مذهب ومذهب^(٢).

ب - الثناء على الثورة الفرنسية والتأثر بمنهجها الثوري:

إن أفكار الثورة الفرنسية، ذات الفكر والمعتقد الماسوني^(٣) كان لها عظيم الأثر على الجمعيات القومية، وقد اعتبر أعضاء الجمعيات الثورة الفرنسية من

(١) مذكرات البارودي-١/٦٣.

(٢) الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي-رئيف الخوري-١٥١.(تصرف يسير)

(٣) وقف كثير من المؤرخين على العلاقة الوثيقة بين الماسونية وبين الثورة الفرنسية. وفي مقدمتهم المسيو (موترو) الذي نشر مذكراته التاريخية عام ١٩١٢. والذي أكد صراحة بأن الثورة الفرنسية كان ضبط أزمتهما في أيدي الماسونية، وأنهم هم الذين دبروا كل فصولها ولعبوا كافة أدوارها. انظر: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي-أنور الجندي-٤٥٧-دار الكتاب اللبناني-بيروت-الطبعة الثانية-١٩٨٣.

أسباب الرقي وقالوا عنها: لولا الثورة الفرنسية لما ارتقى الإنسان واصطلح نوع الأحكام إلى ما هي عليه الآن، ليس في فرنسا وحدها، بل في أوروبا كلها، بل في العالم قاطبة^(١).

وأثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس تحدث رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي عن موضوع (تربيتنا السياسية) مبنياً موقف الجمعيات القومية تجاه الأفكار الأوروبية في مجال السياسة والاجتماع، ومما قاله الزهراوي: إنه حان للشرق أن يمضي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه (الغرب)، والغرب اليوم مقتد بالشرق ومهما أردنا أن نقول يجب على الشرقي أن يحتاط فيما يريد أخذه من بدع الغرب فإننا لا نستطيع أن ننكر أن عدم اقتباس الشرقيين شيئاً من وسائل حرية الغربيين فيه من الخطر أضعاف أضعاف ما في الجمود على الحالات المعهودة فالأقتباس لا بد منه.

وبعد تقرير هذه التبعية للمبادئ الغربية قال الزهراوي: واجب علينا الشكر لأساتذتنا الذين لم يبلغوا مكانتهم في الاجتماع والسياسة مجاناً، ولهذا رأيت أن أعلن في مقدمة خطبتي أننا سنعتز بالجميل دائماً وأنا سنحتفظ لأوروبا ذكرى ما نقتبسه منها .. وجئنا أوروبا ونريد أن يجيئها كثيرون منا لتكبر عقولنا وهممنا برؤية آثار العقول والهمم، جئنا أوروبا ليزداد علمنا في حضارتها وأساليب اجتماعها الراقية^(٢).

(١) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي - رثيف الخوري - ١٢٢ - دار المكشوف - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٩٧٣

(٢) المؤتمر العربي الأول المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية في باريس - ٣١.

كما قد شبه أعضاء الجمعيات (الثورة العربية) — التي قادها أعضاء الجمعيات — بالثورة الفرنسية، واعتبروا الثورة العربية ثورة عامة على سائر نظم البلاد، غايتها قلب النظم الاجتماعية قبل النظم السياسية، وقد حذا فريق من قادتها حذو أمثالهم في فرنسا، وقلدوهم تقليداً تاماً، ورمّوا إلى ما رمّوا إليه من أهداف في الثورة الفرنسية الكبرى^(١).

إن الدول الصليبية وبالذات فرنسا أصبحت حامية ومباركة للجمعيات القومية العربية، ولذا كانت نشأة بعض الجمعيات القومية على أرض فرنسا في (باريس)^(٢) ومؤسسوا الجمعيات قد درسوا وتخرجوا من جامعتها^(٣).

ولقد كان من نتائج انتساب أعضاء الجمعيات القومية العربية إلى المحافل الماسونية، أن تولدت كما يقول فيليب حتي: مبادئ القومية العربية الشاملة، واستمدت وحيها على الأغلب من النظريات السياسية الأمريكية، التي استمدت إلهامها من مبادئ الثورة الفرنسية، وكان ظهور مبادئ القومية العربية على يد رجال الفكر السوريين، وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا في المدارس الأمريكية في بلادهم.

(١) معروف الرصافي (دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية) - بدوي أحمد طبانة - ٥ - القاهرة - ١٩٤٦.

(٢) كجمعية رابطة الوطن العربي، وجمعية العربية الفتاة، وحزب البعث. انظر: ص (١١٧ و ٥٢) من الرسالة.

(٣) انظر أثر البعثات العلمية في تأسيس الجمعيات القومية العربية - ص (١٩٨) من الرسالة.

وبعد أن بين فيليب أثر انتساب أعضاء الجمعيات القومية إلى المحافل الماسونية قال فيليب: (ومما لا ريب فيه أن القومية الحديثة إنما هي بضاعة غربية استوردها العالم بما فيه الشرق العربي من أوروبا الغربية)^(١).

ج - نشر المعتقدات العلمانية في واقع المسلمين:

من قرارات المؤتمر الماسوني، الذي عقده المحافل الماسونية السورية اللبنانية في مدينة دمشق سنة ١٩٢٤ وترأسه القطب الأعظم صاحب الشوكة الأمير محمد سعيد الجزائري، ما يلي:

١- أن يكون التعليم علمانياً، مع المطالبة بتسليم الكليات التابعة للجامعة (ليون) إلى إدارة فرنسية غير مقيدة بواجبات مذهبية (كاثوليكية).

٢- إزالة الطائفية في الوظائف الإدارية، وجعل الكفاءة أساس التوظيف^(٢).

ويذكر فؤاد الغصن^(٣) الماسوني في مذكراته عن هذا المؤتمر بأنه قد قامت مختلف الهيئات في سوريا ولبنان تدرس وتخطط في سبيل السير قدماً نحو التقدم والفلاح، وكان في طليعة هذه الهيئات البناؤون الأحرار - أو الماسونيون إذا

(١) العرب تاريخ موجز-فيليب حتي-٢٧٢-٢٧٣-دار العلم للملايين-بيروت-الطبعة الخامسة-١٩٨٠.

(٢) الماسونية والماسونيون في الوطن العربي-حسين حماده-١٣٦(بتصرف).

(٣) انظر الترجمة رقم (٥٣).

شئت —، فعقدت محافلهم مؤتمراً تمهيدياً في سوريا العام ١٩٢٤ اتُّخذت فيه مقررات لدرس الأمور التالية:

١. القانون الأساسي للبلاد.
٢. الحرية الشخصية في المسكن والقول والنشر .
٣. التشريع الفردي وأنظمة القضاء، ووضع القوانين.
٤. مسائل التربية والتعليم^(١).

ولنشر أفكار محافل الماسونية أصدروا عدداً من الصحف والمجلات في البلاد العربية، مثال ذلك: جريدة الأحرار، فقد اتفقت جماعة البتّائين الأحرار على تأسيس جريدة كبرى تنطق بلسانهم وتعبّر عن أمانيتهم بالاتحاد والتعاون في سبيل دعم النهضة الجديدة، فكان أن استقر رأيهم على أن يؤسس لهذه الغاية شركة مساهمة لجريدة أطلق عليها اسم (الأحرار)، وتولى جبران التويني^(٢) الصحافي — أحد أعضاء محافل الماسونية — إدارة الجريدة ورئاسة تحريرها، فكانت أوسع الجرائد انتشاراً إذ كانت تقرأ في كل مكان من البلاد العربية^(٣).

ومن الصحف الماسونية في البلاد العربية، (مجلة اللطائف) وكان صدور المجلة سنة ١٨٨٦ (١٣٠٣هـ) أصدرها شاهين مكاربوس الماسوني وأحد أعضاء جمعية بيروت السرية، وقد روجت المجلة لأفكار الماسونية، وتوقفت المجلة لوفاة

(١) مذكراتي خلال قرن-فؤاد غصن-٢٤٠.

(٢) انظر الترجمة رقم (١٣).

(٣) مذكراتي خلال قرن-فؤاد غصن-١٤١. (بتصرف يسير)

شاهين مكاربوس سنة ١٩١٠ (١٣٢٨هـ) ثم استمر في النشر سنة ١٩١٥ (١٣٣٣هـ) على يد إسكندر بن شاهين مكاربوس^(١).

ومن الصحف أيضاً مجلة (المقتطف) ومن مؤسسيها فارس نمر وكذلك صحيفة الهلال وحررها جرجي زيدان^(٢) الذي صور الماسونية بأنها حركة حرية وخير^(٣).

د - تميش الدين الإسلامي:

ومن المبادئ الماسونية التي تأثرت بها الجمعيات، تميش الدين وعدم الاهتمام به، حيث اعتبرت الماسونية الأديان كلها خرافة متساوية، قال كولفين: (إننا إذا سمحنا لليهودي أو لمسلم أو لكاثوليكي أو لبروتستانتني بالدخول في أحد هياكل الماسونية فإنما ذلك يتم على شرط أن الداخل يتجرد عن أضراليه السابقة ويجحد خرافاته وأوهامه التي خدع بها في شبابه فيصير رجلاً جديداً فلو بقي على ما كان عليه لا يستفيد ألبتة من محافلنا الماسونية)^(٤).

وهذا الموقف الماسوني من الدين تأثرت به الجمعيات القومية العربية، فقد أصبح مفهوم (الأخوة) عند رجال الحركة القومية العربية: هو كل من آمن ببلاد العرب وطناً له، وبالعرب إخواناً له، دون اعتبار لدينه أو مذهبه.

(١) الماسونية في منطقة ٢٤٥- أبو إسلام أحمد عبدالله-٤٣-٤٤.

(٢) انظر الترجمة رقم (١٤).

(٣) اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب-أنور الجندي-١٦٥-دار الاعتصام-القاهرة-١٩٩١.

(٤) السر المصون في شيعة الفرمايون-لويس شيخو اليسوعي-٢٣.

وقررت الجمعيات القومية أن الحركة القومية الحديثة لم تقم على أي مبدأ عنصري أو تعصبي أو ديني. ومنذ البداية قامت التشكيلات الحزبية على اشتراك العرب المسلمين والمسيحيين^(١). فكانت بمقتضى مناهجها — قد قررت الجمعيات القومية — أن يُترك كل إنسانٍ ومعتقده، فلست على أحد بمسيطر، والناس أحرار لهم أن يدينوا بما يشاؤون، ويتعصبوا بما يريدون^(٢).

وقد ورث أعضاء الجمعيات القومية العربية، البغض الشديد للدين و القصيدة التالية التي قالها أحد أعضاء الجمعيات القومية والمتأثر بالمخالف الماسونية، تعبر عن ذلك :

الخير كل الخير في	هدم الجوامع والكنائس
والشر كل الشر ما	بين العمائم والقلائس
ما هم رجال الله فـ	يكم بل هم القوم الأبالس
يمشون بين ظهوركم	تحت القلائس والطئالس ^(٣)

فمن الدروس التي تعلمتها الجمعيات القومية العربية من المخالف الماسونية، أن تتفق جميع الملل ولا يكفر بعضها البعض، لأن جميعهم يعبدون إلهاً واحداً — ولا يقصد العبادة بمعناها الشامل فهذا غير حاصل — ويسكنون أرضاً واحدة ويأكلون الطعام نفسه.. وأن الفرق الأساسي بين المذاهب ناشئ عن اختلاف

(١) الحركة العربية سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة- سليمان موسى- ٦٣.

(٢) جريدة المفيد برقم ١٣٧٩ وتاريخ ١٨/٩/١٩١٣ (نقلا من كتاب العرب والترك- توفيق برو- ٤٨١)

(٣) السر المصون في شيعة الفرسمون- لويس شيخو - ٢٤ والشاعر هو: إبراهيم اليازجي. وقيل إنها لمكاربوس.

في الإدراك، وتفاوت المشارب بإمكان التوفيق بينها وجمعها على عتبة واحدة، فالأصل لازم والفروع تترك وتهمل^(١).

وانطلاقاً من مبدأ إزالة التنافر من المجتمع يلزم تحقيق مبدأ: اتحاد عناصر المجتمع المؤلف من أجناس وأديان وعادات مختلفة^(٢).

رابعاً - التعاون مع الماسونية للقضاء على مفهوم الخلافة الشرعية في الإسلام:

لقد اتفقت المبادئ الماسونية مع مبادئ الجمعيات القومية في الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، وقد قال أحد أعضاء الماسونية: الماسونيون هم الذين حرروا العالم من سلطان البابوية، وفرقوا بين السلطة المدنية والسلطة الدينية للبابا... وإن تركيا قد نالت دستورها بفضل محافلها - وبخاصة في سلانيك مدينة يهود الدونمة -^(٣).

وهذا المنهج الجاهلي كان من ضمن المبادئ التي اقتبستها الجمعيات القومية، من المحافل الماسونية، فقد أجمعت الجمعيات القومية على تأييد مطلب فصل الدين عن الدولة، وحصر نفوذ السلطات الروحية في نطاق خاص بما لا تتعداه^(٤).

(١) مذكرات طه الهاشمي - (١٩١٩-١٩٤٣) - ٤٦ - منشورات دار الطليعة - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٦٧.

(٢) ثورة العرب - أحد أعضاء الجمعيات القومية - ٥٨.

(٣) جريدة السياسة الأسبوعية - ١١/١٢/١٩٢٦. كتابة/عزيز ميرهم.

(٤) الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي - رثيف الخوري - ١٥٦.

وانظر: دراسات الفكر العربي - ٦٣-١٥٩ - معهد الإنماء العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٩٨٣.

ولتحقيق هذا المبدأ ناصر أعضاء الجمعيات القومية جمعية الاتحاد والترقي، وانتسب بعض الأعضاء فيها مثل رفيق العظم، وحقي العظم^(١)، وعزيز علي المصري، وسليمان البستاني^(٢)، ورشيد رضا، وسليم الجزائري^(٣). وهي جمعية أكثر أعضائها من الماسونيين، وقدمت الماسونية الدولية كل المساعدات الممكنة لهذه الجمعية^(٤).

وانطلاقاً من مبدأ احتواء المحافل الماسونية للجمعيات المعارضة لحكم السلطان عبدالحميد، فقد دأب أعضاء الجمعيات على عقد اجتماعاتهم السرية في المحافل الماسونية، وفتحت السفارات الأجنبية أبوابها لكل مخطط عصيان على السلطان^(٥).

وبهذا فقد كانت المحافل الماسونية وبناءً على توصيات محاضرها قد ضمت المحافل الماسونية القوميين العرب الذين يعيشون خارج حدود الدولة العثمانية — قبل إعلان الدستور — ، مثال أمين أرسلان^(٦) وخليل غانم^(٧).

(١) انظر الترجمة رقم (٢٢).

(٢) انظر الترجمة رقم (٣٢).

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٩٧

(٤) انظر: أحمد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين-١٣٢.

(٥) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية-حسان علي حلاق-٢٨٨-جامعة بيروت - بيروت-١٣٩٨.

(٦) انظر الترجمة رقم (٧).

(٧) انظر الترجمة رقم (٢٣).

وكان خليل غانم يكتب في عدة صحف أوربية ذات نفوذ اتحادي وأجنبي وتمويل يهودي ضد السلطان عبدالحميد. ففي عام ١٨٩٥ (١٣١٣هـ) كتب مقالاً بالاشتراك مع أمين أرسلان في صحيفة (تركيا الفتاة) في سنتها الأولى وعددها الأول عدّد فيه أهداف الجمعية وغاياتها في الحصول على حرية شخصية وحرية معتدلة.. واستئصال الأغراض والمنافع الشخصية وتعديل الضرائب ومساواتها^(١).

وجمعية الاتحاد والترقي أو (تركيا الفتاة) منذ إنشائها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركي خالص، فأنور باشا -مثلاً- هو ابن رجل بولندي، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة، وقارصوه من اليهود الأسبان القاطنين في سلانيك^(٢). الحاخام الأكبر، وكان يسمى (ناعوم) القطب الأعظم لمخفل سلانيك الماسوني^(٣). وكان طلعت باشا بلغارياً من أصل غجري اعتنق الإسلام ظاهراً، أما أحمد رضا -أحد زعمائهم في تلك الفترة- فقد كان نصفه شركسياً، والنصف الآخر مجربياً^(٤).

فاتنفت المبادئ الماسونية والمبادئ القومية العربية وتحالف أعضاء الجمعيات القومية مع جمعية الاتحاد والترقي لإسقاط السلطان عبدالحميد^(٥)، والقضاء على

(١) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية-حسان علي حلاق-٢٨٨-٢٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه-٣٠٥.

(٣) الماسونية في العراق-محمد علي الزعي-٢٢٠.

(٤) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية-حسان علي حلاق-٣٠٥.

(٥) انظر: مذكراتي السياسية-السلطان عبدالحميد-٧٣.

مفهوم الخلافة الشرعية في الإسلام ثم إعلان الدستور^(١)، وأخذ كثيرون من شباب الطليعة - كما تقول مجلة الهلال القومية - يشتركون مع الأتراك والعناصر الأخرى الحاقدة على حكم السلطان للإطاحة به^(٢)، ولم يتأخر بعض كبارهم عن الانتساب إلى جمعية الاتحاد والترقي، والظهور بمظهر غلاة الداعين إلى التحرر^(٣).

وبعد تحقيق القضاء على الخلافة الشرعية والإطاحة بالسلطان عبد الحميد - كشف الغطاء عن المحافل والجمعيات الماسونية، كما قال أعضاء المحافل الماسونية: قد رأينا في أصقاعنا - الدولة العثمانية - نهضة الماسونية منذ أُعلن الدستور وما مر علينا بعض أشهر حتى ذقنا من ثمار تلك الشجرة السيئة، فقام (ماسون) بلادنا وقعدوا لضبط أزمة السياسة وعلى الأقل لعقد الأحزاب السياسية وتغليب آرائهم الثورية بإلقاء الخطب^(٤).

كما صرح أحد أعضاء جمعية الاتحاد عقب نجاح الانقلاب بالمساعدات التي حصلوا عليها، فقال: (لقد كان للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الأثر الكبير في حركتنا، ويجب ألا نستغرب ذلك لأننا

(١) انظر: الباب الثالث - الفصل الأول من الرسالة ص: (٦٥٧).

(٢) انظر: مجلة الهلال - الجزء الأول من السنة (١٧) - ١٣٢٦/٩/٦ - بعنوان: الانقلاب السياسي العثماني ص ٣.

(٣) الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام) - عدنان الخطيب - ٧١ - معهد البحوث والدراسات العربية - ١٩٧١.

(٤) السر المصون في شيعة الفرمايون - لويس شيخو اليسوعي - ٣٤.

ماسونيون أيضاً، وأود أن أوجه شكري إلى الجمعية الماسونية الإيطالية التي أمدتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها^(١).

السبب الثاني: الدعوة إلى القومية التركية:

يعتبر القرن التاسع عشر الميلادي عصر القوميات في القارة الأوروبية، فكانت عوامل التغيير والتبديل تنطلق من هذا الأساس الجاهلي، وتأثرت البلاد العثمانية بهذا الواقع، ونحو منتهى القرن التاسع عشر الميلادي اجتازت العصبية الجنسية حدود أوربة وبلغت الأقطار الآسيوية وانتشرت فيها انتشاراً سريعاً فنشأت حركة^(٢) تركية الفتاة ومصر الفتاة^(٣) وحركات وطنية أخرى .. وما كاد يطلع القرن العشرون حتى بدأت صادقات الأدلة وواقعات الحال تفيد أن العصبية الجنسية في آسية .. قد اجتازت مخاضها ودخلت في دورها الثاني أعني دور التثام العروق وتآلبها الجنسي، فنشأت جامعات جنسية عديدة^(٤) .

وقبل ظهور المبدأ القومي عند الأتراك حيث مبدأ الوحدة الإسلامية هو الحاكم والفاصل ما كانت تُعرَّفُ كلمة (التركية) — في عرف رجال الدولة وكتابها — إلا مرادفةً للعامية والبداية، فكانت لا تستعمل إلا للدلالة على السوق والسذج من الناس .. واللغة الرسمية نفسها ما كانت تنسب إلى التركية بل كانت تنعت بـ(العثمانية) فإنهم كانوا يقولون: (لساني عثماني). بمعنى اللغة

(١) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري-سهيل صابان-١٦٧.

(٢) جمعية الفتاة وهي التي تولت سلطة الحكم بأسم جمعية الاتحاد والترقي.

(٣) جمعية العربية الفتاة انظر: الباب الأول-الفصل الأول ص (١٠٢)

(٤) حاضر العالم الإسلامي-لوثرروب ستوارد-٧٧/٤-دار الفكر-بيروت-الطبعة الرابعة ١٣٩٤.

العثمانية و(صرف عثمانى). بمعنى الصرف العثماني و(أدبيات عثمانية). بمعنى الآداب العثمانية.. ويظهر من كل ما تقدم أن كل شيء في السلطنة العثمانية كان ينعت تارة وطوراً بالإسلامية ولكنه ما كان ينسب إلى التركية أبداً^(١).

وقد زار أحد المستشرقين القسطنطينية سنة ١٨٥٦ (١٢٧٢هـ)، وذكر من ضمن ملحوظاته على الناس: أن كلمة (تركلك) — ترك — تُفهم وتُعدّ من مترادفات الفظاظ والشكاسة والهمجية، فيقول: (لما كنت أقدم على تنيه الناس إلى الخطورة العظمى التي يجب اعتبارها في شأن متحدر الجنس التركي، كانوا يجيئونني: [ولكن بالله عليك لا تجعلنا في مصاف الكير غيز وجفاة التتر]. كدت لا أرى إلا أقل من القليل من الترك في القسطنطينية من يذهب مذهب الجد والاهتمام في شأن الجنسية التركية أو اللغة التركية)^(٢).

ولذا ظل الترك كما يصفهم — لوثروب ستوارز — حتى نصف القرن الذي خلا — التاسع عشر — يكادون لا يعرفون شيئاً من ماضيهم وتاريخهم وأصلهم ومنتسبهم... وكانوا بمعزل عن تصفح تاريخ بلادهم وصحف آبائهم وأجدادهم — بمنطلق قومي جاهلي — إذ كانت تلاوة الكتب الدينية والسيرة النبوية والأحاديث عن مجمل ماضي الإسلام، أمراً يلذهم أكثر من تلاوة أبناء انتشار الفتوح العثمانية في القارات الثلاث^(٣).

(١) محاضرات في نشوؤ الفكرة القومية-ساطع الحصري-٩٢-مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية-١٩٨٥.

(٢) حاضر العالم الإسلامي-لوثروب-١١١/٤.

(٣) المصدر السابق نفسه-٧٩/٤.

وإضافة إلى التأثير الأوربي في الالتقاء على مبادئ قومية ، فقد ظهرت مجموعة من الكتابات، وفي أوقات متقاربة جداً دراساتٌ أوجدت عند (الأتراك) حوافزَ قوميةً أيدت الدعوة إلى القومية التركية، منها:

١- المؤرخ الفرنسي ج. دكيني: حيث وضع عام ١٧٥٦ (١١٦٩هـ) كتاباً عن التاريخ العام .. للترك والمغول . وقد أصبح هذا الكتاب فيما بعد أحد أهم مصادر الفكر القومي التركي.

إن أهمية هذا الكتاب تكمن في كونه قد كشف عن الأسس التاريخية التي يمكن أن يقوم عليها المشروع القومي التركي.

٢- اليهودي الإنجليزي [دافيد لوملي]: وضع كتابه قواعد اللغة التركية، وهذا الكتاب أصبح واضحاً أن تُوَفِّرَ تاريخ للترك ولغة يستدعيان بالضرورة الانتماء إلى أمة ووطن يشكّلان القاعدة والهدف معاً لوحدة شعوب .. التتار والترك.

٣- ولتعميق الشعور التركي وبلورة هوية الأمة وتأكيد خصوصيتها الثقافية والانتماء للوطن، بدأ المؤرخ [بونسن] عام ١٨٥٤ (١٢٧٠هـ) بالكتابة عن اللغة الطورانية التي اعتبرها تختلف عن اللغات السامية وهي غير أوربية أو هندية، بل لغة آسية الوسطى .. هيأت تلك المقدمات الباحثين الغربيين لاستخدام مصطلح الطورانية على نطاق واسع.

٤- اليهودي المجري [أرمنيوس فاميري]: فقد تنكر بلباس درويش تركي وطاف في أرجاء آسية الوسطى وخرج من رحلته هذه بكتاب (رحلة درويش

شباب في آسية الوسطى) أرسى من خلاله، وبعهد نظريته الخاصة القائلة: بضرورة قيام اتحاد قومي تركي، أطلق عليه (بان تور كيزم) وقد تبناه الإنكليز.

٥ - المسوليون كوهين الفرنسي: وضع كتاباً تاريخياً عن آسية الأتراك في منغولية، وأصلهم منذ عام ١٤٠٥م (٨٠٨هـ-)، وقد صدر الكتاب سنة ١٨٩٦ (١٣١٤هـ-)، وقد أفاض المسيو كوهين في وصف المزايا العسكرية^(١).

ويرى (لوثرروب) أن لأرمينوس وكوهين يرجع إليهما كبير الفضل في كشف الحقائق المؤيدة لوحدة الأرومة الطورانية، وكان لأعمال هذين العالمين القطبيين أكبر دوي في أنحاء العالم، فطفقت كتب أرمينوس وزملائه تنتشر في كل بقعة من بقاع العالم الطوراني الجديد انتشاراً سريعاً، فأقبلت عليها العقول الطورانية المستعدة الاستعداد العجيب للأخذ عنها والاقْتباس منها^(٢).

وعن تأثير هذه الدراسات الغربية على منظري (جمعية تركيا الفتاة)، يقول ساطع الحصري: (إن المؤلفات القومية الغربية تلك، كانت تركز دوماً على الترك قبل الإسلام، فقد وجد بعض الكتاب في تلك المؤلفات مباحث عديدة تبرهن على أن الأتراك كانوا متقدمين في الحضارة تقدماً بيناً قبل ظهور الإسلام أيضاً، ولذلك صاروا يقتبسون منها ما يتعلق بتاريخ الأتراك السابق للإسلام والمستقبل عن الإسلام^(٣)).

(١) الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط - قيس جواد العزاوي - ١٢٧ (بتصرف يسير) - مركز دراسات الإسلام والعالم - تامبا - الولايات المتحدة الأمريكية - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ -

(٢) حاضر العالم الإسلامي - لوثرروب - ١١١/٤

(٣) محاضرات في نشو الفكرة القومية - ساطع الحصري - ١٠٣.

فكانت من الآثار الفكرية لهذه الدراسات الغربية، أن أول من تبني هذه الأفكار القومية عالمان من علماء الترك وهما: أحمد و فيق باشا^(١) وسليمان حسن باشا، ففي سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣هـ) نشر أحمد و فيق باشا قاموسه (لهجة عثماني) وأثبت فيه أن اللهجة العثمانية فرع من اللغة التركية العامة.. وأخرج سليمان باشا في تلك الفترة كتابه (صرف تركي) وحرص على وصف كتابه بكلمة التركي بدلا من كلمة العثماني.

وكان سليمان باشا ناظراً — وزيراً — على المدارس العسكرية فقرر كتابه على هذه المدارس، وهكذا بدأ ضباط المستقبل يدرسون مبادئ القومية التركية جنبا إلى جنب مع دراستهم العسكرية الفنية.

كما قام نجيب عاصم^(٢) بترجمة كتاب (ليون كوهين) عن تاريخ آسيا الوسطى، الأجزاء الخاصة بتاريخ الترك من هذا الكتاب، فقد بدأ الترك بعد هذه الترجمة يعالجون القومية التركية في الكتب وفي الصحف، وكانت أولى هذه

(١) أحمد و فيق باشا: (١٢٣٨-١٣٠٨هـ-١٨٢٣-١٨٩١م): كاتب ورجل الدولة العثمانية. درس ثانوية (سن لوي) في باريس بمناسبة وجود أبيه سفيرا للدولة العثمانية في باريس. وقد عين في مكتب الترجمة بعد تخرجه. ثم أصبح سفيرا للدولة في (طهران) وارتقى في السلك الوظيفي إلى أن أصبح صدراً أعظم (١٢٩٥هـ-١٨٧٨م) يعتبر من أوائل دعاة الثقافة الغربية والقومية التركية في الدولة العثمانية. انظر: (قاموس المؤلفين-١٤-إحسان إشق).

(٢) نجيب عاصم: (١٢٧٧-١٣٥٤هـ-١٨٦١-١٩٣٥م): كاتب لغوي خريج المدرسة الحربية في استنبول. درّس بعد المشروطية مادة اللغة التركية والفرنسية في دار الفنون. ثم رشح عن ولاية (أرضوم) نائبا في البرلمان (١٣٤٦هـ-١٩٢٧م). يعد من أوائل المدافعين عن القومية التركية، وعرف بكتاباته ومقالاته الكثيرة في هذا الصدد. انظر: (قاموس المؤلفين-٣٢١-إحسان إشق).

الصحف هي صحيفة (إقدام)، فقد تحولت على يد صاحبها أحمد جودت إلى أداة لنشر هذه القومية^(١).

ومن تأثر بهذه الكتب العالم التركي (ضياء كوك آلب)، فقد قرر في كتابه (تور ككجيلكك أساسارى) - أسس القومية التركية - أن كتاب كوهين كان أول كتاب تأثر به عند وصوله إلى استنبول قادماً من سالونيك^(٢).

وقد قرأ الدكتور ناظم المرخص المسؤول لجمعية الاتحاد - الكتاب المذكور - فكان كالجذوة أصابت هشيماً يابساً لأنه أوقد في نفوسهم نار الحماسة والحمية .. وبما أن الجمعية الفرنسية قرظته وخصته بالعناية فقد حل عند الاتحاديين مكاناً رفيعاً فنقلوه إلى التركية بعبارات بالغوا فيها ما استطاعوا^(٣).

ومن تأثر بكتاب [كوهين]، الدكتور رضا نور، وقد نقل عنه كثيراً في كتابه (تاريخ الترك) الذي أراد أن يلقن به الأجيال القادمة أصول العقيدة التركية^(٤).

(١) التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة - أحمد السعيد سليمان - ٢٤ - دار المعرفة - القاهرة .

(٢) أسس القومية التركية - ضياء كوك - ١٠ - استنبول - وزارة التعليم الوطني - ١٩٩٠ - إعداد محمد قبايلان - (باللغة التركية)، وذكر في نفس الصفحة : أن نجيب عاصم ترجم له الأقسام إلى اللغة التركية . وكان أحمد جودت بك جعل جريدة الأقدام عضواً حياً لنشر القومية التركية، فكان أمر الله أفندي - ولد شلي أفندي - ونجيب عاصم بلو من أوائل دعاة القومية التركية .

(٣) المنار - رشيد رضا - المجلد ١٩ الجزء ٨ - ٥٠٤ - بتاريخ ١٢/٢٥/١٩١٧ .

(٤) التيارات القومية والدينية في تركيا المعاصرة - أحمد السعيد سليمان - ٢٤ .

والقضية المعنية في حديثنا، هي أن هذه النزعة القومية التركية قد كانت من أسباب نشأة الجمعيات القومية، حيث يرى أعضاء الجمعيات القومية، أن الأمة العثمانية صارت كلها كتلة واحدة مع الاتحاديين - جمعية الاتحاد والترقي - لما أظهروا أنهم معها. ولكن لما انفردوا عنها فارقتهم وعادت إلى الانقسام على نفسها.. انفصل الاتحاديون عن الأمة وصاروا في شق وهي في شق آخر، منذ تظاهروا بالنعرة القومية وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سيادة الترك لسائر العناصر العثمانية، فنبهوا بذلك العصب الحساس في العثمانيين كافة، فابتعدت قلوبهم عنهم وعادت روح القومية إلى صدورهم^(١).

وعلى نداء الطورانية وتترك تركيا ردت العناصر الأخرى بندايات مماثلة، وهبت شعوب البلقان تسعى إلى التحرر والاستقلال، ثم تبعها الأرمن والعرب والأكراد. غير أن جماعة تركيا الفتاة سرعان ما تناسوا الدوافع الدستورية وراحوا يقمعون تلك الثورات.. وأصاب العرب من هذا القمع أشدّه، لأنهم كانوا يشكلون أكبر أقلية في جسم الدولة العثمانية، ولكنهم لم يستسلموا، بل لجؤوا إلى العمل السري، وأسسوا الجمعيات القومية في الداخل والخارج^(٢).

ويؤكد أن الدعوة إلى التركية، كانت من أسباب نشأة الجمعيات القومية، قول أحد مؤسسي الجمعيات القومية بعد إسقاط السلطان عبدالحميد وإعلان

(١) ثورة العرب - أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية - الفصل الثاني.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة - لورانس - ١٥-١٦.

الدستور: (.بدا لفئة قوية من رجال الاتحاد والترقي أن يعنوا بالعنصر التركي وأن يركزوا الدولة فيه ويعاملوا بقية العناصر بالطريقة التي تتبعها فرنسا في الجزائر، وأسسوا لذلك الأندية التركية والجمعيات التركية (تورك يوردى). واخترعوا الشعر القومي الذي يحبي مآثر جنكيز وتيمور، وصاروا ينتصرون لتيمورلنك على السلطان بايزيد^(١) ويدعون إلى الطورانية، ونظروا إلى العربية بعين العدا والارتباب.

فكان لذلك رد فعل مباشر من دعاة القومية العربية في المدارس العليا بالآستانة نفسها، وتأسس (المنتدى الأدبي) ثم تأسس من ورائه (الجمعية القحطانية) و(حزب العهد). وكلاهما من ضباط الجيش. وتأسست في بيروت (العربية الفتاة)^(٢).

وقد رافق الدعوة إلى القومية التركية، تطبيع البلاد العربية بالحركة القومية التركية، فمن ذلك: أصبحت اللغة الرسمية في كل الولايات العثمانية هي اللغة التركية، وأصبحت معاهد التعليم تركية فقط. كما كان هذا التتريك يعني مركزية في الحكم^(٣).

(١) السلطان بايزيد الابن الأكبر للسلطان محمد الفاتح، ولد عام ٨٥١هـ، وتسلم مقاليد السلطة بعد وفات والده عام ٨٨٦هـ، وفي عصره ابتداء فتح علاقات مع الدول الأوروبية، وتنازل عن السلطة لابنه سليم عام ٩١٨هـ وتوفي بعد ذلك بعشرين يوماً في مدينة دموتيقا عن ٦٧ سنة ومدة حكمه ٣٢ سنة. انظر: (تاريخ الدولة العلية العثمانية-محمد فريد-١٧٩-١٨٧).

(٢) مذكرات محب الدين الخطيب-١٩. نقلا من كتاب الشيخ طاهر الجزائري (رائد النهضة العلمية في بلاد الشام)- عدنان الخطيب-٤٦- وانظر: نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٠٤.

(٣) الدولة العثمانية والشرق العربي-محمد أنيس-١٧٨.

ولقد أخذ يصدر عن بعض رجالات الجمعية تصريحات وأقوال عجيبة في حق العنصر التركي في التمايز على غيره في الدولة. من ذلك مقال كتب في جريدة (طنين) بعد شهور قليلة من إعلان الدستور: (إن الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة، وأن لها الحق في التمتع بحقوق وامتيازات أكسبها إياها حق الفتح. وإنه ليس من إمكان ولا محل للاعتراف بحقوق مساوية في الدولة للعناصر الأخرى).

ولتحقيق مبدأ تترك الدولة العثمانية، فقد أنشئت جمعيات قومية تركية، تسعى لتحقيق هذا الأمر، مما جعل ذلك مبرراً للعرب في إنشاء جمعيات تتبنى قوميتهم العربية. وقد أصدرت الحكومة التركية قانوناً حظرت به تسمية المنظمات والأندية بأسماء قومية، وأخذت تتشدد في هذا الحظر بالنسبة للمنشآت التي ينشئها العرب، في حين تغافلت عما قام من منظمات ومنشآت قومية تركية كانت وظلت تحتفظ بالتسميات التركية وتنهج نهجاً تركياً عنصرياً^(١).

وباستعراض لأسماء بعض الجمعيات التركية، وتاريخ نشأتها نجد التشابه بينها وبين الجمعيات القومية، فمن ذلك:

أولاً: جمعية تركية الفتاة:

في سنة ١٨٨٩ (١٣٠٦هـ) شكل جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية الإمبراطورية في استنبول منظمة ثورية هدفها الواضح عزل عبد الحميد الثاني^(٢).

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٠١-٣٠٢.

(٢) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ. رامزور-٤٩-ترجمة صالح أحمد العلي-منشورات دار مكتبة الحياة-بيروت-١٩٦٠. انظر: العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٣٨٣.

وبعد تحديد الهدف سعى مؤسس الجمعية إبراهيم تيمو الذي باحث ثلاثة من زملائه الطلاب الذين كان يعرف آراءهم، وهم اسحق سكوتي، وشركس محمد رشيد، وعبدالله جودت، واقترح عليهم أن يشكلوا جمعية وطنية سرية^(١).

وقد باشرت أعمالها منذ عام ١٨٩١ (١٣٠٨هـ) في جنيف أولاً ثم نقلوها إلى باريس، وكانوا يعملون على نشر دعوتهم سرّاً^(٢).

وسلكت الجمعية بعد أن كشف أمرها، وأصبح عدد من الطلبة القدامى الذين صاروا موضع شبهة، وجدوا من الخير لهم الآن أن يغادروا البلاد. وفي سنة ١٨٩٤ (١٣١١هـ) - ١٨٩٥ (١٣١٢هـ)، أخذ هؤلاء الأعضاء يهربون باستمرار إلى أوربة، حيث تركز معظمهم في باريس. وقد ذهب القادرون على السفر لغرضين، أحدهما: الهروب من انتقام السلطان. والثاني لإكمال دراستهم.. وفي باريس وجد المتآمرون الشبان أن جماعة صغيرة من الأحرار الأتراك قد اجتمعت بالفعل، ومنها خليل غانم، وهو مسيحي من بيروت^(٣).

وجمعية تركية الفتاة لم تخرج عن التنظيم الماسوني كغيرها من الجمعيات التركية والعربية، فقد كانت على طراز جمعية (الكاربوناري)^(٤) الإيطالية التي

(١) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨ - أرنست أ. رامزور - ٥٢.

(٢) موقف الدولة العثمانية من الصهيونية - حسان علي حلاق - ٢٨٧. انظر: تاريخ الدولة العلية - محمد فريد - ٤١٠.

(٣) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨ - أرنست أ. رامزور - ٥٤.

(٤) جمعية الكاربوناري: جمعية سياسية سرية إيطالية يكتنف الغموض أصولها وبرامجها السياسي نفسه. والواقع أن <محافل> جمعية الكاربوناري الأولى ظهرت عند مطلع القرن التاسع عشر في إيطاليا الجنوبية. وكانت من المحافل الماسونية من حيث رموزها وهيكلتها الهرمية. وعلى الجملة، فقد نادى أعضاء هذه الجمعية بتحرير إيطاليا من الحكم الأجنبي ودعوا إلى إقامة الحكم الدستوري فيها، من غير أن يكون لهم برنامج سياسي موحد. ولعب « مشعلو الفحم » دوراً بارزاً في التمهيد للوحدة الإيطالية. انظر: (الموسوعة العربية - منير البعلبكي).

تشكلت في القسم الأول من القرن التاسع عشر، ففي العطلة الصيفية السنة السابقة لتشكيل الجمعية توقف إبراهيم تيمو في (برنديز) لما كان في طريقه إلى بلاده ألبانية، وزار خلال إقامته في (برنديز) ونابولي محفلاً ماسونياً برفقة أحد أصدقائه، وتعلم شيئاً كافياً عن دور الكاربوناري في التاريخ الإيطالي. وقد تأثر بتنظيمها فيما بعد لما قرر أن ينشئ في ترقية جمعية سرية تشبهها.

إن هذه الجمعية الأولى لتركية الفتاة... كان أثر الكاربوناري فيها واضحاً من حيث أن المفروض في أعضائها أن يعرف بعضهم بعضاً بأرقام كسرية، وتتكون هذه الأرقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديدة في المنظمة، ثم بإعطاء رقم لكل عضو في تلك الجماعة، فكان رقم الخلية أو الفرع هو المقام ورقم العضو البسط، ولتوضيح ذلك نقول: إن العضو الخامس في الخلية السابعة في قائمة الجمعية برقم (٧/٥) وكان رقم إبراهيم تيمو منشئ الحركة (١/١)^(١).

وقد كان لليهود تأثير في جمعية تركية الفتاة، فنسيم روسو ونسيم مازلياح كانا من العناصر المؤسسة والفعالة فيها^(٢). فكانت خليطاً من أجناس وأديان مختلفة، وكانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك ويليهم اليهود، وانجذب إليهم بعض الرعايا العثمانيين من الأجناس الأخرى^(٣).

(١) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ. رامزور-٥٠.

(٢) موقف الدولة العثمانية من الصهيونية-حسان علي حلاق-٣٠٥.

(٣) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١٧٦.

لقد صرحت جمعية تركية الفتاة بمنهجها من خلال نشرة (مشورت) — وهي لسان حال تركية الفتاة — صدرت بتاريخ ٣/ ديسمبر ١٨٩٥/) ١٣١٣هـ) وبينت أهداف الجمعية وقدمتها إلى قرائها، (منها):

١— إننا نطالب بالإصلاحات، ولا نقصرها على هذه الولاية أو تلك، بل نطلبها للإمبراطورية كافة، لا لمصلحة قومية واحدة، بل لمصلحة العثمانيين كافة سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين.

٢— لقد تأكدنا بأنفسنا من تعاون شخصيات معينة، رغبتها القومية هي أن ترى عودة الروابط السابقة من الانسجام والصدقة الطيبة مع العثمانيين.

٣— إننا نعارض إحلال التدخل المباشر للدول الغربية محل السلطة العثمانية، وهذا ليس ناجماً عن التعصب لأن المسألة الدينية عندنا أمر خاص، ولكنه منبعث من العاطفة المشروعة للكرامة المدنية والقومية^(١).

وبعد هذا العرض الموجز عن جمعية تركية الفتاة، فقد سلكت الجمعيات القومية العربية، منهج جمعية تركية الفتاة، فتأسست جمعية في تونس سميت (تونس الفتاة) أنشئت بنفس تاريخ إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ وأنشئت جريدة (التونسي) بالفرنسية ناطقة لها، ودعت إلى إيجاد دولة تونسية عصرية متحررة، ولو اقتضى ذلك دوام الاحتلال الفرنسي، شريطة أن يطور البلاد^(٢). ونظم

(١) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨—أرنست أ. رامزور—٥٦.

(٢) القومية العربية—مصطفى الشهابي—٢٥٣. وانظر: الحركة الوطنية —رؤية شعبية قومية جديدة—الطاهر عبدالله—٣٩. العرب والعثمانيون—عبدالكريم رافق—٤٧٥.

الشبان ذوو الثقافة الفرنسية أنفسهم في عام ١٩١٢ في جمعية الجزائر الفتاة، ودعوا إلى الاندماج في المجموعة الفرنسية، على أساس المساواة^(١). وأنشئت جمعية (العربية الفتاة)^(٢). تأثراً بتركية الفتاة.

ومسمى (الفتاة) على بعض الجمعيات ظهر عند الأتراك ثم عند العرب، وهذا مما يقوي الاعتقاد بأنها سلسلة متصلة بالثورات الغربية، فقد ظهرت جمعية في إيطاليا عام ١٨٣٢، باسم (إيطاليا الفتاة) وكانت هذه الجمعية لا تضم إلا رجالاً سنهم دون الأربعين عاماً، وكانت جمعية سرية عملها ثوري وفي الوقت نفسه تربوي^(٣).

ثانياً: جمعية ترك درنكي (المنتدى التركي):

وكان تأسيسه في ديسمبر ١٩٠٨ في الآستانة، وهو أول ناد تركي أسس لغاية أدبية وعلمية، كي يكون في خدمة القومية التركية. وكان من مؤسسيه بعض من عرفوا بشديد تعصبهم للقومية التركية، أو الرابطة الطورانية: مثل زعيمه يوسف آقحورة، وأحمد فريد بك. وكانت البحوث التي انصرف أعضاء هذا المحل إلى دراستها هي كل ما يتعلق بالشعب التركي، من تاريخ ولغة وخصائص عرقية وحضارة وأدب، وحياة اجتماعية، وجغرافية تركيا القديمة، والعمل على إعادة الطابع الأصلي القديم للغة التركية^(٤). وهذا المنتدى مقابل للمنتدى الأدبي العربي .

(١) العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٤٧٢.

(٢) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ.رامزور-٣٣. من مقدم الكتاب نقولا زيادة.

(٣) تاريخ الحركات القومية-نور الدين حاطوم-١٢٣/٢-١٢٤.

(٤) العرب والترك-توفيق برو-٢٧٠.

ثالثاً: جمعية ترك يورتي جمعيتي (جمعية الوطن التركي):

أسسها الترك في عام ١٩١١، وكانت غاية الجمعية أدبية اجتماعية قومية تشبه غاية المنتدى الأدبي العربي^(١). وهذه الجمعية التركية مقابل جمعية رابطة الوطن العربي .

السبب الثالث: تأمر الدول الغربية على الدولة العثمانية:

لقد أخطر ربنا في كتابه عن تأمر أهل الكفر على أهل الإيمان، فقد قال تعالى: ﴿ وَدَّتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَّلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾^(٣).

هذا التآمر الذي حدث على الأمة في القرن الرابع عشر الهجري، كان سبباً في نشأة الجمعيات القومية العربية، فقد بينت الدول الاستعمارية مقاصدها، وسعت لهدف غلبة المبادئ القومية على النزعة الدينية، وغلبة الاعتقاد الوطني على المعتقدات الدينية، وأن تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا (الطبيعية) مثلها الأعلى الديني. تمثلها الأعلى الوطني؟^(٤).

ويعتبر لورانس العقل المدبر في تسيير ثورة فيصل بن الحسين، وقد ذكر كيد وتآمر الدول الاستعمارية على الأمة الإسلامية، وحرصهم على تأسيس

(١) المصدر السابق-٢٧٣.

(٢) سورة آل عمران-رقم الآية (٦٩).

(٣) سورة التوبة- رقم الآية (١٠).

(٤) الثورة العربية-لورانس-١٢.

الجمعيات القومية العربية، فقد قال لورانس: (كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزق تركيا شذر مذر)^(١).

كما اعتبر منظرو السياسة البريطانية الجمعيات القومية حلفاءً وأصدقاءً لهم، حيث يقول: (إننا نعد الجمعيات والأحزاب العربية حلفاءً لنا وأصدقاءً.. ونوليها ما تستحقه من الاحترام والتقدير)^(٢).

وهذا التآمر الاستعماري على الأمة الإسلامية وتمزيقها قد جاء بأساليب متنوعة، ومن هذه الأساليب السعي من أجل إنشاء جمعيات قومية، فقد ورد في خطاب وزير المستعمرات (أورمسي غور) إلى رئيس الوزارة البريطانية (نيفيل تشمبرلين) بتاريخ ١٩٣٨/١/٩ (١٩٥٦/١١/٨هـ): [..إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية البريطانية وحدها بل فرنسا أيضاً.. إن سياستنا تهدف أبداً إلى منع الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وينبغي أن تكون كذلك، ففي السودان ونيجريا كما هو الحال في مصر ودول إسلامية أخرى، شجعنا وبصواب نمو القوميات المحلية لكونها أقل خطراً من الوحدة والتضامن الإسلامي..]^(٣).

(١) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-٥٥ ولورانس يعتبر أحد رجال المخابرات الإنكليزية.

(٢) أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين-أمين سعيد-٢٤٤.

(٣) بريطانيا والخلافة الإسلامية-وثيقة تاريخية سياسية-عبدالوهاب أحمد-جامعة الإمارات-العين-١٩٨٠.

ولتحقيق نشر القوميات أنشؤوا الجمعيات التي تدعو إلى القوميات، وكان السلطان عبدالحميد قد بين جهود ما تبذله الدول الاستعمارية في تأسيس الجمعيات القومية في البلاد العربية، والإنكليز بصفة خاصة، فقد قال في مذكراته عن الإنكليز: (استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن ييثوا بذور القومية والعصية.. وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا، وقد ظهرت في سوريا بوادر تحرك مماثل.. وأن هؤلاء المستعمرين بذلوا جهوداً كبيرة في الدعاية للإقليمية في البلاد الإسلامية بغية إضعاف هيبتنا، وقد لقيت هذه الدعاية قدراً كبيراً من الرواج)^(١).

ويمكن حصر وسائل الدول الاستعمارية في إنشاء الجمعيات القومية، بالأمور التالية:

١- القنصليات والسفارات للدول المستعمرة:

من منطلق مساندة التطور الصناعي الذي تشهده الدول الأوروبية، وبغية تنظيم شؤون الدولة على غرار الدول الغربية وتقريب العالم الإسلامي من العالم الغربي الذي عاش بعيداً عنه^(٢)، فقد خضعت الدولة العثمانية لعدة مراحل إصلاحية^(٣)، أعطت الدول الاستعمارية فرصة التدخل في شؤونها، ومنحوا

(١) مذكراتي السياسية-السلطان عبدالحميد-١٧٧.

(٢) الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري-سهيل صابان-٣.

(٣) انظر: ١- البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-١٥٥.

٢- مجلة الهلال-الجزء الثاني- السنة السابعة عشرة- ١٠/٧/١٣٢٦-١٣٢٦-٨٩-القانون الأساسي.

٣- سوريا والعهد العثماني-يوسف الحكيم-١٩٢.

امتيازات أصبحت حقوقاً شرعية لا يمكن التراجع عنها، بل إنها تعدت ذلك إلى أن أصبحت تطل فئات اجتماعية واسعة كانت تعتبر أصلاً من رعايا السلطان فاعتبرت فرنسا مثلاً أن لها حق حماية الكاثوليك الأوروبيين والعثمانيين والإرساليات الأوربية الكاثوليكية العاملة بينهم^(١).

فكانت هذه الامتيازات والتنظيمات العثمانية من أهم الوسائل التي استغلتها الدول الغربية فسارعت بتأثير هذا التوجه الجديد إلى إقامة مؤسساتها التي ترعى مصالحها وتعمل على تحقيق أهدافها^(٢).

ومن أهم هذه المؤسسات الحكومية، القنصليات والسفارات الصليبية، حيث لقيت الجمعيات القومية العربية تشجيعاً من بعض الدول الغربية وفي مقدمتها فرنسا، فقد وضعت هذه الدولة قنصلياتها تحت تصرف أعضاء هذه الجمعيات، وأخذ جل رؤسائها وأقطابها ينظرون إلى فرنسا وبريطانيا بعين الصداقة والإخلاص^(٣).

ويؤكد جورج كيرك مؤلف (كتاب موجز تاريخ الشرق الأوسط) أن القومية العربية ولدت في دار المندوب السامي البريطاني^(٤). ومن صور عناية قنصليات الدول الاستعمارية بالجمعيات القومية العربية، حينما ألغت جمعية

(١) أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة-محمد مجزم-٢١-
معهد الإنماء العربي-بيروت لبنان-الطبعة الأولى ١٩٨٦.

(٢) سوريا والعهد العثماني-يوسف الحكيم-١٩٢.

(٣) تاريخ المملكة العربية السعودية-صلاح الدين المختار-١١٠-مكتبة الحياة-بيروت

(٤) مذاهب فكرية معاصرة-محمد قطب-٥٨٥.

الاتحاد والترقي المطالب التي قدمتها جمعية بيروت الإصلاحية^(١) واعتبرتها خيانة للدولة العثمانية وحلت الجمعية، وبعد ثلاثة أيام من اتخاذ هذا الإجراء، ذهب بعض أعضاء الجمعية إلى القنصلية البريطانية ومن ثم إلى القنصلية الفرنسية ليحتجوا على عمل الوالي، وفي القنصلية البريطانية قيل لهم إنهم يستطيعون أن يعقدوا اجتماعاتهم في قاعة الكلية السورية الإنجيلية لأنهم في تلك الحقة من الزمن، كانوا يعتبرون مجتمعين على أرض أجنبية حيث يكون لهم ملء الحرية بعقد أي اجتماع من اجتماعات الجمعية هناك. وقد وافق القنصل الفرنسي على هذا التدبير ونصح لهم أن يتصرفوا بموجبه^(٢). وعليه عقدت الجمعية العامة اجتماعاً في القاعة الكبرى في الكلية السورية - الجامعة الأمريكية -، وقررت الدعوة للإضراب العام في ١٢ نيسان والاحتجاج على حل الجمعية^(٣).

ونتيجة لهذا القرار، فقد أرسل بعض أعضاء الجمعية وجميعهم من النصارى رسالة - تحمل توقيعاتهم - إلى القنصلية الفرنسية باسم أبناء طوائفهم ويوضحوا بدقة أماني نصارى سورية، وعلى تأكيد ارتباطهم بفرنسا. ويدل هذا على تأثير الدول الاستعمارية على الجمعيات القومية العربية^(٤).

وتعتبر قنصليات دول البلاد المستعمرة معبراً آمناً لنشرات ومطبوعات الجمعيات القومية، إذ أن إدخال المنشورات السرية داخل البلاد كان من رابع

(١) انظر ص (٩٣) من الرسالة .

(٢) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٢١١-حاشية الفصل الخامس رقم ٤٩ .

(٣) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي-وجيه كوثراني-١٩٠ .

(٤) بلاد الشام (قراءة في الوثائق)-وجيه كوثراني-٢٦٩-معهد الإنماء العربي

المستحيلات بسبب صرامة المراقبة الموضوعة على المطابع، صغيرة كانت أم كبيرة. فكان لا بد من أن يسافر بعض (الأحرار) إلى خارج المملكة لكي يطبع المنشورات هناك، وفي معظم المدن الرئيسية عدة دوائر بريد أجنبية تابعة لسفارات الدول (المعظمة) وقنصلياتها، وكلها كانت مصونة في مراقبة الدولة بسبب الامتيازات الأجنبية المعلومة^(١). فكانت هذه القنصليات تحميهم — بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية — من الخضوع لأوامر القبض التي يصدرها السلطان ومن تفتيش البوليس لمنازلهم، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لأن لهم محاكمهم القنصلية الخاصة^(٢).

وقد قضت الامتيازات الممنوحة للجانبايات الأجنبية بتشكيل محاكم قنصلية خاصة ذات صلاحية تامة للنظر في الدعاوى بين الرعايا الذين ينتمون إلى هذه القنصلية أو تلك. وكان رعايا الدول الأجنبية المقيمون في الدولة العثمانية من غير المسلمين لا يخضعون للقوانين العثمانية، بل كانوا يتمتعون بأحكام خاصة بهم، وكان القاضي في هذه المحاكم القنصلية القنصل نفسه، يعاونه مستشاران^(٣).

ويحدث عوني عبدالهادي — وهو أحد المؤسسين للجمعية — عن الوضع المريب الذي اتخذته فرنسا أثناء إعلان الحرب ضد مواطني الدولة العثمانية، فيقول: لبنا ننتظر مصيرنا الذي لن يكون أقل من أن نرج مع أمثالنا التابعين

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٩١.

(٢) الذئب الأغر-مصطفى كمال-ه.س. مسترونج-نشر دار الهلال.

(٣) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٣٣.

للبلاد المعادية للحلفاء بالمعتقلات. ولكن لم يمض كثير وقت حتى وافانا الخبر العجيب غير المنتظر، بأن الحكومة الإفريقية قررت زج الأتراك بالمعتقلات والسماح للسوريين في الإقامة أحراراً في باريس^(١).

وكانت الدول الاستعمارية تراقب تطورات نشأة الجمعيات القومية، فقد استدعى مكماهون - معتمد بريطانيا في مصر - الكولونيل لورانس، والسير رونالد ستورس - سكرتير الإدارة الشرقية في السفارة، وقال لهما: لقد تأكد لنا من أن فكرة ما أخذت تتغلغل بين العرب في جميع الأقطار التي يسكنونها، وعرفنا بأن سورية أصبحت البؤرة الأساسية لتلك الفكرة^(٢).

وتولى مسؤولو القناصل كتابة التقارير إلى حكوماتها مفصلة عن أوضاع الدولة العثمانية، مثال ذلك: التقرير الذي رفعه مدير القنصلية الفرنسية في بيروت، حول توقيع معاهدة السلام الإيطالية التركية وحرب البلقان، وأثر ذلك في الاتجاهات السياسية في سورية. وتقرير القنصلية الفرنسية عن الدعاية المؤيدة للإنكليز في سورية^(٣).

وكانت تقارير قناصل الدول الاستعمارية تدل على الاطلاع التام على أحوال وسير الجمعيات القومية العربية، فمن ذلك تقرير القنصل البريطاني، ومما جاء فيه (إن جوهر الإصلاح كان يدور حول مطلب رئيس: [إدارة لامركزية].. وأن أطراف مطلب من مطالب الإصلاح [استقدام خبراء ومستشارين ومفتشين من الأجانب]^(٤)).

(١) عوني عبدالمهدي-أوراق خاصة- إعداد خيرية قاسمية-١٤.

(٢) معركة ميسلون-احسان هندي-١٢.

(٣) بلاد الشام (قراءة في الوثائق)-وجيه كوثراني-٢٥٣-٢٨٩.

(٤) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٩٨.

وكان هذا التقرير عن مطالب جمعية الإصلاح البيروتية، فقد جاء تقرير القنصل البريطاني مصرحاً بذلك، حيث يقول (كان أعضاء الجمعية الإصلاحية يبدون نشاطاً سياسياً غير مألوف في البلاد، وشجاعة في حملتهم الإصلاحية لا عهد للناس بها من قبل)^(١).

كما اعتنت الدول الاستعمارية بالجمعيات القومية العربية، خارج الدولة العثمانية فقد احتوت أكبر تمثيل عربي للجمعيات القومية العربية من خلال المؤتمر العربي الأول، الذي أقيم في باريس (فرنسا).

وعندما سئل رئيس المؤتمر: عن سبب اختيار باريس ليعقد فيها المؤتمر؟ قال: (.. أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا لأوروبا التي تزداد أهمية مصالحها في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم... ويمكننا أن نضع أساس تفاهم بين الشرق والغرب. وهو مؤتمر لم يكن له صبغة دينية كما صرح رئيس المؤتمر بذلك)^(٢).

٢ - المدارس والكليات التصيرية:

نشأت في البلاد العربية مؤسسات تعليمية كثيرة، تبنت الدعوة إلى النصرانية^(٣)، وليس غرض الباحث في هذه القضية إلا بيان دور هذه المؤسسات التعليمية في نشأة الجمعيات القومية العربية.

(١) المصدر السابق-٩٩.

(٢) المؤتمر العربي الأول-ص١٩.

(٣) حول هذا الموضوع انظر:

١. التبشير والاستعمار في البلاد العربية-مصطفى الخالدي وعمر فروخ-٩١-١١٢.
٢. يقظة العرب-جورج انطونيوس-٩٨١٠٩.
٣. البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٨١.
٤. حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزو دروزة-١٢١/٢.
٥. الحركة الوحدوية في لبنان-سعيد مراد-٨٣.
٦. واقعنا المعاصر-محمد قطب-٢١٧-٢٣٥.

ويظهر أن أبلغ تأثير للمؤسسات التعليمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، هو تأثير الجامعة الأمريكية في بيروت والتي تأسست أولاً باسم الكلية السورية الإنجيلية في سنة ١٨٦٦ (١٢٨٣هـ) وتولى رئاستها دانيال بلس^(١). وقد ذكر القوميون عن دور الجامعة الأمريكية بأنها: أيقظت فيهم روح العزة العربية، وجمعت أبناء البلاد العربية في حظيرة هذه القومية .. وإن طلاب الجامعة العربية نظرتهم أنهم (أرباب عقيدة عربية)^(٢).

ويقول أحد أعضاء الجمعيات القومية، عن دور هذه المؤسسات ومنها الجامعة الأمريكية، بأنها كانت ذات مآرب سياسية استعمارية.. مما كان له أثر كبير في تناقض أفكار الناشئة العربية التي كانت تؤمها وأهدافها فصارت الجامعة الأمريكية التي تخرج منها آلاف طلاب العرب حرة التزعة فكان لخريجها مساهمة فعالة في حركة الوعي القومي العربي^(٣).

طرحت الجامعة الأمريكية جائزة (هورد بلس)^(٤) -ابن مؤسس الجامعة- لمن يبرز في كتابة (أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر)، فانتدب لذلك أنيس الصولي، فكتب في ذلك بحثاً، فاز بالجائزة، وقد ذكر المؤلف أن من أسباب النهضة العربية مدارس المبشرين في بيروت، وفي مقدمتها الجامعة

(١) انظر: يقظة العرب - جورج انطونيوس - ١٠٦.

(٢) التبشير والاستعمار - مصطفى الخالدي وعمر فروخ - ٩٢.

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ١٢٥. (بتصرف)

(٤) انظر الإعلام - خير الدين الزركلي - ٣٣٠/٢.

الأمريكية، وقال: (إن الجامعة بلا جدال ركن متين من أركان النهضة العربية الحديثة وثمره طيبة من ثمرات الإرساليات)^(١).

وعن دور الجامعة في تأسيس الجمعيات قال: (عمد شبان الجامعة الأمريكية إلى تأسيس الجمعيات واتباع الأنظمة البرلمانية والخضوع لها)^(٢).

وعن الدور السياسي الذي قامت به الجامعة الأمريكية في ذلك الوقت، يقول أحد الدارسين فيها: (حينما كنا طلاباً كنا نتخذ القرار بالإضراب السياسي في قلب الجامعة الأمريكية، وكانت المظاهرات من الجامعة - معقل الوطنية - ثم كان الطلاب يعودون من المظاهرات ويدخلون إلى صفوفهم في اليوم التالي كأنهم آتون من عطلة)^(٣).

وقد بين أعضاء الجمعيات القومية العربية دور الجامعة الأمريكية في نشأة الجمعيات القومية، بأنها كانت تربي تلامذتها على حرية الفكر وحرية القول، وعودتهم على الحرية الشخصية والمساواة في الحقوق... هذا الروح الذي تمتاز به هذه المدرسة من مدارس الشرق كان لها تأثير كبير في ترقية النفوس في هذه النهضة^(٤). وبخاصة منذ أن كانت تدرس العلوم بالعربية^(٥).

(١) مجلة الزهراء - محب الدين الخطيب - المجلد ٣ - ربيع الأول ١٣٤٥ - ص ٢٠١. وانظر: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر - أنيس الصولي - ٨٥ - دار ابن زيدون - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٥ هـ.

(٢) أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر - أنيس الصولي - ١٧١.

(٣) التبشير والاستعمار - مصطفى الخالدي وعمر فروخ - ١٠٩.

(٤) لبنانيات تاريخ وصور - نقولا زيادة - ١٤٩ - دار الريس - لندن - الطبعة الأولى - ١٩٩٢.

(٥) القومية العربية - مصطفى الشهابي - ٤٤.

وكان من نتائج الجامعة الأمريكية على أعضاء الجمعيات القومية العربية أن التحقوا في جمعية شمس البر الماسونية وهي فرع من جمعية اتحاد الشبان المسيحيين^(١) بإنكلترا، وكان من ضمن أعضاء جمعية شمس البر الماسونية من أعضاء الجمعيات القومية، منهم: جرجي زيدان، اسكندر البارودي، وسليم جريديني، ويعقوب صروف^(٢)، وفارس نمر^(٣).

وقد صرح فارس نمر — أحد أعضاء جمعية بيروت السرية — بأن من قام بتأسيسها، هم النخبة المفكرة وجلهم من النصاري الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية^(٤). وكان هؤلاء النخبة يتلقون دروسهم داخل الكلية من إلياس حبالين النصراي الماسوني، والذي يدرس اللغة الفرنسية، وكما يقول عنه طلابه: كان تقدماً وثورياً في أفكاره، وكان يختصر درس الفرنسية في صفوفه، ليعود إلى موضوع السياسة فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الفاسدة الظالمة^(٥).

(١) جمعية الشبان المسيحيين رابطة دينية اجتماعية ألفها السير جورج ويليمس في انكلترا سنة ١٨٤٤، وهي لا تشترط على أعضائها اتباع مذهب معين من المذاهب النصرانية، ويباح الاشتراك فيها لكل من يرتاحون إلى مبادئها وإن لم يكونوا نصارى. ويبلغ عدد فروعها ٩٠٠ فرع تضم ١٥٠٠٠٠٠ عضو بينهم النصراي واليهودي والمسلم. وفي تركيا وفلسطين فروع لها. انظر مجلة الهلال الجزء السادس - السنة ٣٦ بتاريخ ١٠/١٠/١٣٤٦هـ.

(٢) انظر الترجمة رقم (٧٢).

(٣) لبنانيات تاريخ وصور - نقولا زيادة - ١٤٩.

(٤) نشوء القومية العربية - زين نور الدين زين - ٦٠.

(٥) المصدر السابق نفسه - ١٩٦ - هامش الفصل الرابع برقم ١٦.

إن جمعية الآداب والعلوم، تعد من أوائل الجمعيات العلمية التي أنشئت في البلاد العربية، وقد كان من مؤسسيها (كورنيليوس فان دايك)^(١)، وهو ممن أسس الجامعة الأمريكية في بيروت^(٢).

وتأثير الجامعة الأمريكية على أعضاء الجمعيات القومية العربية، انطلق من الهدف الأول لتأسيس الجامعة وهو (تنصير أبناء المسلمين) كما نص على ذلك الأعضاء المؤسسون للجامعة، فقد قالوا: (نحن نصر على الطابع التبشيري للكلية، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً)^(٣)، ولذا كان المنصر القس^(٤) دانيل بلس هو أول رئيس لها، والذي وصل إلى بيروت سنة ١٨٥٦ (١٢٧٢ هـ)، وظل في البلاد إلى حين وفاته سنة ١٩١٦ (١٣٣٤ هـ) (أي ستين سنة) وقد جاء مبشراً، وعمل في بيروت وعبية .

وممن تولى العناية بالجامعة الأمريكية ويقوم بزيارتها: ثيودور روزفلت^(٥)، الذي تولى فيما بعد رئاسة الولايات المتحدة. وكان بلس كثير الاتصال بأهل

(١) انظر: يقظة العرب-جورج انطونويس-١١٧.

(٢) التبشير والاستعمار في البلاد العربية-مصطفى الخالدي وعمر فروخ-٩٦.

(٣) المصدر السابق-٩٧.

(٤) انظر يقظة العرب-جورج انطونويس-١٠٦ حاشية رقم (٢).

(٥) الرئيس الوحيد للولايات المتحدة الذي انتخب ٤ مرات، استمرت لمدة ١٢ عاماً، ولد في نيويورك وفي عام ١٩٠٠ التحق بجامعة هارفارد ودرس التاريخ وتخرج فيها ١٩٠٣ ثم التحق بكلية الحقوق بجامعة كولومبيا ١٩٠٤ وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول أمريكا الحرب عمل روزفلت مساعداً لوزير البحرية، وأقام عدة مشاريع حربية، انتخب حاكماً لولاية نيويورك عام ١٩٢٨ وأعيد عام ١٩٣٢ وأصبح رئيساً لأمريكا عام ١٩٣٣ وعمره ٥١ عاماً. تولى الرئاسة وأصدر عام ١٩٤١ الحقوق الأربعة وهي: حرية التعبير وحرية العبادة وتحرر الحاجة والخوف، وأعلن أن جميع الناس يجب أن يتمتعوا بها وفي عام ١٩٤٤ سافر روزفلت للالتقاء بتشرشل وستالين حيث اتفقوا على الهجوم النهائي على ألمانيا وفي عام ١٩٤٥ أصيب بتريف في الدماغ بينما كان يعمل في مكتبه وتوفي. انظر: (الموسوعة العربية-١١/٣٢٤-حرف (الراء)).

الفكر والعلم من العرب المقيمين في بيروت. ويذكر أن بطرس البستاني كان صديقاً له^(١).

وعندما استقال هذا المنصر من رئاسة الجامعة سنة ١٩٠٢، أقام أعضاء الجمعيات القومية العربية تمثالاً له من الرخام الأبيض، وأقيم بهذه المناسبة احتفالاً باهر، ألقى فيه بعض أعضاء الجمعيات كلمات وقصائد، فمما قيل في الحفل: (إن أبناءك المنتشرين في هذا القطر السعيد يزرعون ويتجرون ويتعلمون ويطبسون وينشئون الصحف والمجلات... وأجمعوا كلهم على أن تكون علامة الشكر لك مما يرى بالعيان ويبقى راسخاً على كرور الأزمان... وقد لا يتصور أبناء المدرسة مقدار المصاعب التي ذللتها حتى أنشئت هذه المدرسة وبلغت ما بلغته من السعة والشهرة، فإن المدارس الكلية تحتاج إلى نفقات كبيرة.. فطرقت أبواب قومك الأميركيين في مواطنهم وما زلت تحت الأغنياء وترغبهم في هذا العمل المبرور حتى جمعت ما يكفي من المال للشروع في هذا العمل^(٢)).

٣ - الدعم المادي:

لقد أخطر ربنا عن إنفاق الذين كفروا ليرصدوا عن سبيل الله كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ

(١) لبنانيات تاريخ وصور- نقولا زيادة-٢٤٨.

(٢) مجلة المقتطف-الجزء السابع من المجلد التاسع والعشرين-١٧/٤/١٣٢٢ الموافق ١/ يوليو سنة ١٩٠٤-ص ٥٦١. وانظر: الجزء الثامن المجلد التاسع والعشرين-ص ٦٩٢.

تُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ (١). إنهم ينفقون أموالهم، ويبدلون جهودهم، ويستنفذون كيدهم، في الصد عن سبيل الله، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين. وفي حرب العصبة المسلمة في كل أرض وفي كل حين (٢).

وقد سلكت الدول الاستعمارية هذا المنهج، فقد قال لورانس مبيناً دور بريطانيا في الدعم المادي الذي قدمته لتأسيس الجمعيات القومية العربية، بأن بريطانيا، لم تكن شحيحة، فمساعدتها للحركة العربية بالسلاح والمال تجاوزت عشرة ملايين من الجنيهات (٣).

وفي البصرة أخذ لورانس يبحث عن رجال الأحزاب العرب يقصد تشجيعهم على القيام بحركة ضد الأتراك، وقاده البحث إلى سليمان فيضي — سكرتير الجمعية الإصلاحية — فاستدعاه وعرض عليه العمل على تنظيم ثورة عربية بعد أن أكد له أن بريطانيا (بدون شك عازمة على إفساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها، بشرط أن يساهم العرب أنفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال) (٤).

وتم الاتصال ببعض مؤسسي الجمعيات القومية العربية، من أجل التنسيق في إعلان الثورة ضد الدولة العثمانية، وقدموا مبلغاً لمستلزمات إعلان الثورة

(١) سورة الأنفال-رقم الآية (٣٦).

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب-١٥٠٦/٣.

(٣) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-١١٤.

(٤) مذكرات سليمان فيضي-٢٠٨-٢٢٦-فصل (لورانس في العراق)-بغداد-١٩٥٢.

وقدر بألف جنيه^(١). وقد طلب بعض أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية مطالب إلى القنصلية الفرنسية وتتضمن الدعم المادي ومد يد المساعدة والدعم المعنوي^(٢).

ومن صور الدعم المالي الذي تقدمه الدول الاستعمارية للجمعيات القومية العربية، شراء بعض صحف الجمعيات، فمن ذلك صحيفة المقتبس وهي جريدة وطنية... وكانت إدارتها مجتمعا للعلماء والأدباء من العرب على اختلاف أقطارهم.. فكانت الأولى التي نبهت أذهان الناس — كما يقول عنها أعضاء الجمعيات — إلى واجبهم نحو وطنهم^(٣).

ويصف القنصل الفرنسي العام القيمة المعنوية لصحيفة المقتبس، بأنها أهم جريدة دمشقية على الإطلاق، والوحيدة التي تؤثر في السكان المسلمين تأثيراً شاملاً ونافذاً. ولذا قرر القنصل احتواء هذه الجريدة، فيقول: لم يكن بإمكانني مقابلة صاحب الجريدة^(٤) بنفسي بسبب العادات المحلية حول العلاقات ما بين القناصل والأهالي فكان علي انتظار زيارته.. وكان علي، فضلا عن ذلك أن ألتجأ إلى الموارد الشرقية حتى لا أفضح نفسي أمام الوسطاء الذين أستخدمهم. وقد أظهرنا نحوه عطفاً، وأدينا له خدمات إن في القسطنطينية أو في باريس وقد

(١) انظر: أسرار الثورة العربية الكبرى - أمين سعيد - ٣٧.

(٢) بلاد الشام - وجه كوثراني - ٢٧١.

(٣) مذكرات البارودي - ٥٧/١.

(٤) صاحب الجريدة محمد كرد علي. وانظر: محمد كرد علي (المنقف وقضية الولاء السياسي) - محمد الناصر التفراوي - دار الجنوب - تونس - ١٩٩٣.

عاد ييدي لنا أسمى عواطفه. وتوقفت المقتبس عن مهاجمتنا. وإذا لم يقم بزيارتي فالسبب، كما قال لي بعفوية، أنه لا يريد سماع من يردد أنه [باع نفسه للأجانب].

ولم تقف رغبة القنصل عند هذا الحد، فقد قال: إن حصولنا على حياد المقتبس لا يمكن أن يكفينا بل علينا كسب هذه الجريدة كسباً تاماً والفوز، دون أن تتظاهر بتغيير رأيها. وبعد أن حصل ما يريده القنصل من كسب صحيفة المقتبس، قال: لم نعد اليوم أمام عدو معلن ينبغي الإطاحة بمخططاته، بل صرنا أمام شبه صديق لا ينسى الخدمات التي قدمت له، ويسر إلينا حول الفوضى الحالية بآراء لا يباح بها إلا لأشخاص هم موضع الثقة^(١).

وكان خليل غانم وأمين أرسلان، يكتبان في عدة صحف أوربية ذات نفوذ اتحادي وأجنبي وتمويل يهودي ضد السلطان عبد الحميد. كما في صحيفة (تركيا الفتاة) والتركيز على الحصول على حرية شخصية وحرية معتدلة. واستتصال الأغراض والمنافع الشخصية وتعديل الضرائب ومساواتها^(٢).

ومن أبرز المآخذ التي ذكرها جمال باشا على أعضاء الجمعيات القومية العربية، الإعانات المالية من الدول الغربية، فمن ذلك ما ذكره شكري بك الحسيني لسيف الدين الخطيب أن أحد نصارى العرب المقيم في أمريكا بعث

(١) بلاد الشام- ووجه كوثرائي- ٢٨٩- (بتصرف) وقد كتبت الرسالة بتاريخ ٧ نيسان سنة ١٩١٣ (سري).

(٢) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية- حسان علي حلاق- ٢٨٨-٢٨٩.

مكتوباً ذكر فيه أنه سيرسل ألف دولار لتصرف في سبيل تشكيل الجمعيات القومية العربية^(١).

السبب الرابع: الاستعمار العسكري:

خلال أواخر القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر الهجري، استعمرت بعض البلاد العربية الواقعة تحت الحكم العثماني من قبل الدول الاستعمارية، فكان استعمار لبنان في عام ١٨٦٠ (١٢٧٦هـ) حيث قامت فرنسا بموافقة الدول الأوروبية الكبرى وبناء على اتفاق بينهما وضع في باريس، بإرسال حملة فرنسية عسكرية احتلت لبنان، وقد استمر الاحتلال الفرنسي للبنان سبعة أشهر.. وبناء على مقترحات اللجنة الدولية أصدرت نظاماً إدارياً في حزيران سنة ١٨٦١ ووضعوا نظاماً خاصاً لحكم لبنان عرف باسم (متصرفية لبنان) قوامه الحكم الذاتي للبنان على أن يحكم في لبنان حاكم نصراني مسؤول مباشرة أمام السلطان بضمانة الدول الأوروبية.

ويساعد المتصرف مجلس إداري مركزي يمثل المذاهب المختلفة. وأقر نظام المتصرفية مساواة جميع المواطنين أمام القانون^(٢).

واحتلت فرنسا مدينة الجزائر في عام ١٨٣٠ (١٢٤٦هـ)، كما استعمرت أيضاً مدينة تونس في عام ١٨٨١ (١٢٩٨هـ)^(٣). ووقعت مصر تحت حكم

(١) الإيضاحات عن المسائل السياسية-جمال باشا-٩.

(٢) الدولة العثمانية والشرق العربي-محمد أنيس-٢٠٨. وانظر: العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-

(٣) العرب والعثمانيون-عبدالكريم رافق-٤٣٢-٤٣٨.

الاستعمار ، فقد عقد مؤتمر في الآستانة بحضور كل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا وروسيا والنمسا وإيطاليا، ولم تحضره الدولة العثمانية نفسها صاحبة القضية الأساسية .. واحتفظ المندوب البريطاني في المؤتمر لدولته بحق التدخل^(١) . وقد دخل الجيش الإنجليزي القاهرة وبدأ الاحتلال البريطاني لمصر منذ خريف ١٨٨٢ (١٢٩٩هـ)^(٢) .

وفي سنة ١٩١١ احتلت إيطاليا مدينة طرابلس الغرب، وأعلنت إلحاق كل الولاية إلى بلادها.. وإقدام إيطاليا على احتلال طرابلس الغرب كان بمثابة اقتطاع^(٣) جزء من البلاد العثمانية اقتطاعاً مباشراً، دون أي عذر ومبرر^(٤) .

فكان هذا التقسيم الاستعماري للبلاد العربية حافزاً للبلاد العربية إلى مقاومة الاستعمار بجميع معانيه ومظاهره المختلفة، ودفعت بهذه الشعوب إلى التسلح ببعض أسلحة الغرب المستعمر نفسه من أجل توفير القدرة على الصمود في وجهه والمقدرة على الانتصار في المعركة، وكان التنظيم الحزبي والسياسي في مقدمة تلك الأسلحة^(٥) .

(١) تاريخ العرب الحديث-عبد الوهاب أحمد -١٩١٠ .

(٢) تاريخ العرب المعاصر (مصر والعراق)-عبد العزيز نوار-١٦١-دار النهضة العربية-بيروت. وعن الآثار العقائدية للاحتلال البريطاني لمصر انظر: واقعا المعاصر-محمد قطب-٢١٥-٣٢٤

(٣) عن أثر الاعتداء الإيطالي على علاقة العرب والترك. انظر: العرب والترك-توفيق برو-٣٠٥ .

(٤) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-١٠١ .

(٥) جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الرماوي-٣٢

ومن جانب آخر فقد كان استعمار بعض البلاد العربية سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية، إذ أصبحت بعض البلاد المستعمرة كمصر مثلاً مكاناً آمناً لتأسيس الجمعيات القومية العربية، ورغم أن مصر كانت تتمتع باستقلال شبه ذاتي تحت حكم أسرة محمد علي منذ عام ١٨٤٠ (١٢٥٦هـ) إلا أنها بقيت مرتبطة بحكم شبه مركزي، أي أن مصر بقيت عثمانية في عنوانها الرسمي^(١).

وعندما بدأت الدعوة إلى تترك الشعوب العثمانية، هرب مجموعة من القوميين العرب إلى مصر حيث يجدون فيها المكان الآمن تحت حماية المستعمر، وكان أكثرهم من الشاميين .. وقد استقر بعضهم في مصر، حيث كان الإنجليز يشجعون كل متمرّد في الدولة العثمانية، ويحمون كل خارج عنها^(٢).

شجع المستعمر التمرّد على الدولة العثمانية تنفيذاً لقرارات وزير المستعمرات البريطاني، القائل: [... إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية البريطانية وحدها بل فرنسا أيضاً.. إن سياستنا تهدف أبداً إلى منع الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وينبغي أن تكون كذلك... في مصر ودول إسلامية أخرى، شجعنا وبصواب نمو القوميات المحلية لكونها أقل خطراً من الوحدة والتضامن الإسلامي]^(٣).

(١) العثمانيون وتكوين العرب الحديث - سيار الجميل - ١٧٩.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - محمد محمد حسين - ١٠٠/٢.

(٣) بريطانيا والخلافة الإسلامية - وثيقة تاريخية سياسية - عبد الوهاب أحمد.

ويرى بعض أعضاء الجمعيات القومية أن استقلال هذه البلاد — عن الدولة العثمانية — وأخذه منذ ذلك الزمن بوسائل المدنية الغربية، واقتباسه للعلوم الحديثة، وفتح أبوابه لأحرار العرب وأدبائهم، كل ذلك أوجد في مصر نهضة فكرية وأدبية تقدمت وفاقت نهضة الأقطار العربية السائرة، حتى أمست مصر في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر مباءة يأوي إليها ويستجن بها القوميون العرب^(١).

وقد أدى انفتاح مصر على أوروبا.. وعودة المبعوثين المصريين من فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية وهجرة بعض رجال الشام البارزين إلى مصر إلى نهضة ثقافية وسياسية مبكرة.

وقامت في مصر آنذاك نهضة صحفية واسعة ساهم فيها بعض رجال الشام البارزين الذين أتوا لمصر لنشر أفكارهم وآرائهم السياسية والأدبية التي لم يتمكنوا من نشرها في بلاد الشام. وأنشأ بعض هؤلاء صحفاً ومجلات مهمة^(٢)، تمثل توجهات الجمعيات القومية، فمن هذه الصحف:

جريدة الهلال ومحررها جرجي زيدان وجريدة المقطم وجريدة المقتطف ويصدرهما يعقوب صروف وفارس عمر^(٣) وصحيفة الأهرام التي هي فرنسية

(١) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٤٠.

(٢) تاريخ العرب الحديث-عبد الوهاب أحمد عبدالرحمن-٣٤٦.

(٣) اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب-أنور الجندي-١٦٥. وانظر: الحلقة المفقودة في تاريخ العرب-محمد جميل بيهم-٢١٨-مكتبة مصطفى الباي الحلبي-مصر-الطبعة الأولى-١٣٦٩.

الترعة مارونية الهدف^(١) والتي أنشأها سليم وبشارة نقلا^(٢) ويقارب أن ثلث الجرائد التي يصدرها القوميون كانت تصدر من مصر^(٣).

وكانت مصر قد استقبلت أوائل أعضاء الجمعيات القومية، حيث لجأ إلى القاهرة أبرز مؤسسي (جمعية بيروت السرية) في عام ١٨٨٥ (١٣٠٢هـ) وهم: فارس نمر، وشاهين مكاربوس، ويعقوب صروف. ليؤسسوا هناك جريدة (المقطم) ومجلة فكرية: (المقتطف)، ولتابعوا من خلالها نشر أفكارهم في خط (ليبرالي) ذي صلة أكيدة بتلك البداية التي نشأت في بيروت^(٤).

وفي مصر أسست جماعة من السوريين من أهل الفكر والاختبار السياسي حزباً سياسياً بمعرفة الحكومة التركية، أطلقوا عليه اسم (حزب اللامركزية الإدارية العثماني)^(٥) - جمعية اللامركزية - وتبنت (المنار) نشر قانون الجمعية.

وقد كانت الجمعية على صلة بكتشنر - وزير الحربية البريطاني - القنصل البريطاني في مصر، وقد تدخل كتشنر بناءً على رغبة الجمعية لدى الباب العالي للعفو عن عزيز علي المصري، الذي كان من أبرز المناضلين العرب ضد الدولة العثمانية - ومؤسس جمعيتي العهد والقحطانية - والذي كانت الدولة العثمانية قد قبضت عليه^(٦).

(١) عقبات في طريق النهضة - أنور الجندي - ١٧٨ - دار الاعتصام.

(٢) تاريخ العرب الحديث - عبدالوهاب أحمد عبدالرحمن - ٣٤٦.

(٣) البلاد العربية والدولة العثمانية - ساطع الحصري - ٩٣.

(٤) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي - وجيه كوثراني - ١١٣.

(٥) نشوء القومية العربية - زين نور الدين زين - ٩٤.

(٦) الدولة العثمانية والمشرق العربي - محمد أنيس - ٢٧١. وانظر تفاصيل اعتقال عزيز المصري في: مذكراتي على هامش القضية العربية - أسعد داغر - ٤٩. وعزيز علي والحركة العربية - محمد عبدالرحمن برج - ٩٢.

وقال لورانس عن عزيز علي المصري يعيش في مصر بمثابة المثل الأعلى للضباط العرب، وقد اتصل به اللورد كتشنر في الأيام الأولى للحرب، مؤملاً أن يستطيع بواسطته كسب القوات العسكرية العربية في الجيش التركي إلى جانبنا.

وعن لقائه بعزيز علي قال لورانس: على ظهر السفينة -الباخرة الحربية (لاما)- التقينا بعزيز علي المصري الذي ترك الجيش التركي حيث كان يشغل رتبة كولونيل ليلتحق بالجيش العربي. لقد كان طريقه إلى مكة ليبحث وأميرها تسليح الجيش النظامي، فتعرفنا إلى بعضنا وشرع الضابط الشركسي يتكلم بلغة ألمانية طليقة^(١).

السبب الخامس: التنظيمات الجاهلية في الدولة العثمانية:

قد يكون هذا السبب من أهم الأسباب في نشأة الجمعيات القومية العربية، وقد أخبر ربنا عز وجل في كتابه ما أصاب الأمم السابقة بتقسيمهم أحزاباً وطوائف يكد بعضهم لبعض، بعد أن استبدلوا شريعة الرحمن وشرعوا للأمة ما لم يأذن به الله. فقد قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ﴾^(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال أقبلنا مع رسول الله صلوات الله عليه حتى مررنا على مسجد بني أمية فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً،

(١) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-٢٥ .

(٢) سورة الأنعام-آية (٦٥).

ثم قال: (سألت ربي ثلاثاً سألته أن لا يهلك أمتي بالفرق فأعطاها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطاها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها)^(١).

إن إحداث هذه التشريعات الجاهلية، والتي تسمى (أنظمة) في الأمة، كانت سبباً لشقاء البشرية بظهور الأحزاب والشيوع، وعرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب — والدولة العثمانية تعتبر من ضمن تاريخ البشرية — كلما انحرفت عن منهج الله، وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم.. تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور.

وكلما تجبظ الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقِيماً وموازن من عند أنفسهم، يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً، ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمتهم وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر، والبعض الآخر يأبى ويعارض، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم. فيذوق بعضهم بأس بعض، ويحقد بعضهم على بعض، ويسنكر بعضهم بعضاً، لأنهم لا يفيئون جميعاً إلى ميزان واحد، يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكباراً عن الخضوع له، ولا يحس في نفسه صغاراً حين يخضع له.

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم، ثم يزاول هذا الحق فعلاً، إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعاً

(١) صحيح مسلم - كتاب الفتن وأشراف الساعة - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض - رقم الحديث)

ملتبسة، لأنهم من ناحية المظهر يبدوون أمة واحدة أو مجتمعاً واحداً، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيداً لبعض، ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها — لأنها غير مقيدة بشرعية من الله — ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص.. ويُذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأسّ بعض وهم شيع، ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة^(١).

والدولة العثمانية كانت تعتبر دولة المسلمين من شرقها إلى غربها، وتُمثّلُ بَعْضُ خلفائها الحاكم العادل، وأصبح لقب الخليفة يُنادى به المسلمون وينتمون إليه، ولكن حينما أدخلت الدولة العثمانية على مبادئها قوانين بشرية، ومورثات جاهلية حل بها كما حل بمن قبلها من الأمم ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾^(٢).

لقد عجزت الدولة العثمانية والشعوب الإسلامية عن مواصلة الإبداع، وآل أمرها إلى السقوط.. بسبب الانحراف المادي والعلمي والرهباني الذي أدى إلى تمزيق النشاط الاجتماعي... وسادت نزعة التشاؤم والانشقاق، ومحاولة الفصل بين شؤون الدين والدنيا في أواخر عهدها وعندها فقد الإنسان المسلم العثماني التوازن وحل الانحراف، وتعرقلت مسيرة حركة التاريخ^(٣).

وسبقت الإشارة عن التنظيمات التي حدثت بالدولة العثمانية، وكان الغرض من التنظيمات، ما يلي:

(١) في ظلال القرآن-سيد قطب-٢/١١٢٥.

(٢) سورة فاطر-رقم الآية (٤٣).

(٣) تاريخ الدولة العثمانية-علي حسون/١١١/المكتب الإسلامي-بيروت- الطبعة الثالثة-١٤١٥هـ.

١ - تقريب الهيئة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى وسياسة، وفي الحقيقة: إن الإسلام الذي قد كان مؤسسَ الحكومة العثمانية بقي حاكماً مطلقاً فوق الحكومة ناظماً، فقد كان القانون المدني متحداً مع القرآن... ولكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية... فوجب لتحصيل الائتلاف الذي لا تستطيع تركيا الاستمرار على الاستغناء عنه، إما إزالة الحائل في البين بالمرّة أو تخفيف وطأته. ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها عن تأثير القوانين الدينية.. وإما أن تخلص بالتدرج من الحدود والقيود الدينية من طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيراً موسعاً... وللأحترار من الحالات الموجبة للاشمئزاز.. كانت الحكومة العثمانية اختارت الشق الثاني^(١).

٢ - ضغط الدول الأوروبية ومطالبتها بإصلاح أحوال النصارى التابعين للدولة العثمانية. ويعتبر الباحثون أن معاهدة (كوتشك كاينرجي) عام ١٧٧٤ (١١٤٨هـ)، أساساً حقوقياً لتلك العلاقات، وتعتبر علامة مميزة في تاريخ العلاقات العثمانية الروسية.. فأصبح من حقها إنشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية، وأصبح لرعاياها حق التجارة في أملاك الدولة... ومن أهم المكاسب التي حصلت عليها روسيا بمقتضى هذه المعاهدة أن أضحت لها حق إقامة كنيسة أرثوذكسية في القسطنطينية^(٢).

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين-مصطفى صبري-١/٨٠-٨١. وانظر: تركيا والتنظيمات في تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية-اد.انكلهارد.

(٢) الدولة العثمانية والشرق العربي-محمد أنيس-١٦٩.

وبيّن الشيخ مصطفى صبري، أن فصل المحاكم عن المشيخة الإسلامية في تركيا وفي حكومة الاتحاديين خاصة، حدث بعد مراجعات مزعجة من الدول الكبيرة النصرانية^(١).

وصورة أخرى من الضغط الأوربي على الدولة العثمانية، أن مصطفى رشيد باشا^(٢) — يعتبر أبا التنظيمات — جمع مجلس العلماء، وقال: إن سفير إنجلترا قال لنا في مناسبات عديدة.. إنكم لا تقبلون شهادة الذمي على المسلم، مع أنكم تحكمون بلاداً كثيرة جميع سكانها مسيحيون.. ورشيد باشا، بعد أن عرض على المجلس هذه القضية بتفاصيل وافية، وجه إلى العلماء هذا السؤال: ألا يمكن قبول شهادة غير المسلمين، على الأقل في المحلات التي لا يوجد فيها سكان مسلمون؟.

ولكن مجلس العلماء قال — بإجماع آراء الحاضرين —: (لا مسأغ شرعي لذلك على الإطلاق) وأردف هذه الفتوى (إلا أنه يجوز للحكومة أن تتخذ ما تراه من التدابير الإدارية في أمثال هذه الحالات، إذا صدر أمر سلطان بذلك. لأن الأوامر السلطانية المبنية على المصلحة العامة، تكون مطاعة وواجبة التنفيذ) فاستند رجال التنظيمات على هذه الفتوى، وأخذوا يصدرون الأنظمة والقوانين على شكل أوامر سلطانية^(٣).

(١) موقف العقل والعالم من رب العالمين-مصطفى صبري-٣٥٩/٤.

(٢) مصطفى رشيد باشا: (١٢١٥-١٢٧٤هـ) - (١٨٠٠-١٨٥٨م): من مواليد استنبول. تقلد وظائف عالية في الدولة العثمانية، منها: السفير فوق العادة في لندن وباريس، وأصبح وزيراً للخارجية ثم صدرأ أعظم، كان دوره كبيراً في إعلان حركة الإصلاح العثمانية عام (١٢٥٥هـ). وقد انتسب إلى المحافل الماسونية في استنبول. [مصطفى رشيد باشا وتنظيمات-رشاد قابنار-٤١].

(٣) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٧٩.

٣ - مسايرة الدول الأوروبية في مبدأ التنظيم ، وقد ورد هذا الغرض في قانون ما يسمى بـ (الإصلاحات الخيرية) والذي صدر سنة ١٢٧٢هـ (١٨٥٦)، : ونصه (تأييد وتوسيع نطاق المنظمات الجديدة التي توفقنا إلى الآن لوضعها وتدوينها بالموافقة للموقع العالي الحائزة له دولتنا العلية بين الدول المتمدنة مطلوبونا إيصالها إلى درجة الكمال...فهذا العصر يعد بالنسبة لدولتنا العلية مبدأ زمن الخير..)^(١).

وبالإشارة إلى بعض التنظيمات في الدولة العثمانية، والتي فيها مخالفات عقائدية، يظهر للدارس أنها أوجدت مبررات ساعدت في نشأة الجمعيات القومية العربية، وغيرها من الأفكار الملحدة. ومن هذه التنظيمات ما يلي:

١. إبقاء الحقوق والامتيازات الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة.
- وتمنح لرؤساء الدين سلطات خاصة على شؤون أبناء طبقاتهم.
٢. جعل لكل طائفة دينية مجلس خاص بها، وحددت سلطات المجلس .. وتركت جميع القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية لأبناء الطائفة إلى هؤلاء الرؤساء ، وتلك المجالس.
٣. إحداث محاكم نظامية، تعمل بجانب المحاكم الشرعية القديمة، بموجب قوانين جديدة. وتحال كافة الدعاوى التجارية أو الجنائية التي تقع بين المسلمين والمسيحيين وسائر الملل غير المسلمة، أو بين التبعة المسيحية وسائر التبعة غير المسلمة مع بعضهم، على هذه المحاكم^(٢).

(١) تاريخ الدولة العلية-محمد فريد بك المحامي-٤٨٤. وانظر: البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٧٩.

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية-محمد فريد بك المحامي-٤٨٤-٤٨٧. (نصوص مختارة)

٤. وضع الأنظمة اللازمة لإصلاح شؤون المحاكم الشرعية، وجمع الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات في (مجلة الأحكام العدلية)^(١). وهي ما تسمى بتقنين الأحكام الشرعية، وحينما تحدد الأحكام الشرعية بشكل مواد يتسنى تطبيقها من كل أحد حتى لو لم يكن فقيهاً. كما جاء في تبرير إعداد هذه المجلة^(٢).
٥. تمحى وتزال إلى الأبد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر في اللسان أو الجنسية أو المذهب من أفراد الدولة العثمانية.
٦. لا يمتنع أي شخص من أفراد الدولة العثمانية من إجراء رسوم الدين المتمسك به، ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه.
٧. قبول أفراد الدولة العثمانية، من أي ملة كانت في خدماتها ومأمورياتها.. ويصير قبولهم في المدارس الملكية والعسكرية بلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين^(٣).
- وأصدر في الدولة العثمانية قراراً لمسيرة الإصلاح العالمي — كما يسمونه — نص فيه السلطان العثماني، بقوله: ..إني لا أريد — ابتداء من

(١) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٧٦-٨٠ والتي صدرت في عام ١٢٩٣ هـ. وقد اعتبرت هذه المجلة في وقتها القانون المدني للدولة العثمانية بجميع أقاليمها.(انظر: أحكام المرأة في الفقه الإسلامي-أحمد الحجي الكردي-٢١٣).

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية-محمد فريد-٥٤٦-٥٥٣.

(٣) المصدر السابق نفسه-٤٨٤-٤٨٧. (نصوص مختارة)

الآن — أن يميز المسلمون إلا في المسجد، والمسيحيون إلا في الكنيسة، واليهود إلا في المعبد، إني أريد ما دام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبمجايتي الأبوية^(١).

ويصف مصطفى صبري، — شيخ الإسلام في الدولة العثمانية — حال الدولة العثمانية في آخر عمرها، فيقول: (تألب دول أعداء الإسلام عليها من الخارج ومشايعهم المنافقين في الداخل. وكان تجريد الدولة من دينها ومحاكمها الشرعية ومعاهدها الدينية، استجلاباً لمرضاة الدول الكبيرة الغالبة في الحرب العالمية الأولى، ثم أضافوا إلى ذلك تغيير كل شيء من مشخصات الأمة)^(٢).

لقد كانت هذه التنظيمات الجاهلية من أكبر عوامل تغير واقع الأمة الإسلامية، حيث تعذر على محدثي التنظيمات وبخاصة في عهد الحكومة الاتحادية التوفيق بين الدستور وبين الشرع الإسلامي، ولا يطمئنون إلى أن يكون من الأوربيين ثقة بمثل هذه الدولة المشروطة الإسلامية، إذ لا تستوعب عقولهم كعقول الأوربيين أنه كيف يمكن التوفيق بين الحرية وبين الدين المقيد؟ وقبوه مستثقلة عندهم من جهة عدم موافقته للحكومة الزمنية الأوربية، ومن جهة معارضته لأهوائهم ومظالمهم في داخل المملكة. فالدين يشق عليهم، ويثقل أعناقهم دائماً، لأنهم في تاراتهم وتطوراتهم إذا خضعوا لحكم الحرية، وحاولوا أن يسيروا بسيرها فالدين لا يخليهم، لما أن الحرية والحضارة عندهم عبارة عما يرى

(١) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) - محمد عبداللطيف البحراني - ٢١٤ - دار التراث - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٩٨ هـ.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين - مصطفى صبري - ٨٢/١. (مع الحاشية)

في أوربة بمحاسنها ومساوئها حذو النعل بالنعل، وإذا خلوا إلى طباعهم الطاغية فالدين بكل قوته يمنعهم عن طغيانهم وعدوانهم، فهو مانع يمنعهم في حريتهم واستبدادهم^(١).

لقد حققت هذه التنظيمات مبدأ الحريات، والتقرب لبعض مبادئ الكافرين فأضعفت مبدأ الولاء والبراء. وذلك حينما يكون النظام القائم المساواة في الحقوق بين جميع أبناء الشعب، دون النظر إلى أصولهم أو دينهم كان أول المنتفع بهذا النظام من غير المسلمين^(٢).

ومن منطلق هذه الحريات حصل نصارى لبنان على استقلالية^(٣) في التنظيم والحكم والتحاكم. وأصبحت بعض الدول الاستعمارية تتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية أتباعهم في الديانة^(٤).

كما أنشأت الدول الاستعمارية لنصارى العرب المدارس التي تدرس باللغة العربية جميع العلوم، ولهذا يلاحظ في نشأة جمعيات القومية العربية أن النصارى العرب لعبوا دوراً كبيراً في إثارة الوعي القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.. وقد أتيح لهم فرصة الاطلاع والبحث في تاريخ العرب ولغتهم

(١) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة-مصطفى صيري-١٠- دار القادري-بيروت-الطبعة الأولى-١٤١١ هـ.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه-٢١.

(٣) انظر عن التنظيمات في الدولة العثمانية: مصطفى رشيد باشا والتنظيمات-رشاد قاي نار-الطبعة الثانية-انقره-بجمع التاريخ التركي-١٩٨٥.(باللغة التركية).التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية-محمود رثيف.

(٤) انظر: الفكر العربي في عصر النهضة -البرت حوراني-٥٧.

وآداهم في هذه المدارس ومما ساعد النصارى العرب على أن يلعبوا هذا الدور في تأسيس الجمعيات القومية العربية، أنهم كانوا يعيشون في مستوى اقتصادي مرتفع، ويشكلون عنصراً اقتصادياً في المجتمع العربي .. وكانوا أوثق اتصالاً بأوروبا من العرب المسلمين^(١).

وحيثما يحصر نقد بعض نصوص التنظيمات، وهي المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يتفق مع بعض آراء الكتاب^(٢) في تأييد التنظيم والتجديد، حماية للدولة العثمانية من كيد وتآمر الدول الأوربية، مع عدم المساس بجناب الوحي الإلهي. ولا شك في جواز مبدأ التجديد ولكن ليس على حساب الدين.

(١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي-محمود منسي-٩٥.(بتصرف)

(٢) انظر:

١. أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك-خير الدين التونسي-١٦٥.

٢. العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا-عبدالكريم مشهداني-٧٦-المكتبة الدولية-الرياض-الطبعة الأولى-١٤٠٣.

المبحث الثاني:

الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية

في المبحث الأول أوضحت الأسباب الأساسية في نشأة الجمعيات القومية العربية، وكانت تلك الأسباب قد رافقتها أسباب فرعية، وأعرضها على النحو التالي:

السبب الأول: البعثات العلمية:

بناءً على مبدأ التنظيمات والإصلاحات الذي حدث في الدولة العثمانية، فقد حرصت الدولة على أن تقتبس من الدول الصناعية مبادئ العلوم، فأرسلت عدداً كبيراً من شباب العرب لتلقي العلوم في أوروبا.

كان أول من نفذها محمد علي وذلك بإرسال الطلاب الشبان إلى أوروبا ليتعلموا هناك وكان هذا أخطر ما فعله لأنه من هناك بدأ الخط (العلماني) يدخل ساحة التعليم^(١).

وبخاصة أن أفكار ومبادئ الثورة الفرنسية المنتشرة في أوروبا تجد قبولاً عند بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية في مهجرهم، لذا حاولوا أن يجذبوا حذو

(١) واقعنا المعاصر - محمد قطب - ٢٠٧. وانظر: البعثات العلمية في عهد محمد علي - عمر طوسون - ٦.

أدباء فرنسا في القرن الثامن عشر، مثل جان روسو^(١) وفولتير^(٢) ومونتسكيو، في تخطيط المبادئ الفلسفية للانقلاب الاجتماعي والسياسي الذي ارتسم في أذهانهم^(٣). وقد صرح أحد أعضاء الجمعيات القومية بأنهم إذا عادوا إلى بلادهم سيحملون إليها معارف أوروبا وأمريكا، وسيحملون إليه آداب القوم من سياسية واجتماعية ومن علوم وفنون.. الخ^(٤).

فكان من أوائل الدروس التي تعلمها أعضاء الجمعيات القومية العربية من الثورة الفرنسية هي فكرة الثورة نفسها، لقد رأوا أن حياة الأمم ربما اعترقها المفاسد والظلمات في شؤون الحكومة والسياسة والاجتماع والاقتصاد، ورأوا أن الإصلاح ربما أصبح غير ممكن عن طريق الإقناع والتسوية السلمية، فأمنوا

(١) جان روسو: (١٧١٢ - ١٧٧٨): كاتب وفيلسوف فرنسي. اعتبره بعض النقاد الوجه الأبعد نفوذاً في الأدب الفرنسي الحديث والفلسفة الفرنسية الحديثة. وليس من ريب في أن مقالاته ورواياته قد مهدت السبيل لاندلاع الثورة الفرنسية وانبثاق الحركة الرومانتيكية في آن واحد. عرف بتمجيدته للطبيعة عامة وللطبيعة البشرية خاصة. أشهر آثاره: (في العقد الاجتماعي) Du contrat social (عام ١٧٦٢)، و (أميل) انظر: (الموسوعة العربية- منير البعلبكي).

(٢) فولتير: (١٦٩٤-١٧٧٨) واحد من أشهر الكتاب والفلاسفة الفرنسيين ويعتبر كتابه (كانديد) أشهر أعماله إذ ترجم إلى أكثر من مائة لغة. دخل السجن بتهمة تأليف أشعار تسخر من الحكومة، وأودع سجن الباستيل عام ١٧١٧ وخلال فترت سجنه استطاع إكمال مسرحيته المساوية (أوديب) التي جعل بنجاحها من فولتير أشهر مؤلف مسرحي في فرنسا. نفي إلى بريطانيا وعاش فيها بين فترتي ١٧٢٦ و١٧٢٩ وبعد صدور كتابه الرسائل الفلسفية الذي امتدح فيه الملك والنظم والمؤسسات الإنجليزية غضبت عليه السلطات الفرنسية باعتبار أن ذلك المدح تعريض بها ولهذا أدين الكتاب وفر المؤلف من باريس وعاش فولتير في سويسرا في قصر ريفي بالقرب من مدينة (جنيف) وعندما بلغ عمره ٨٣ عاماً عاد إلى باريس حيث توفي فيها، انظر: (الموسوعة العربية - ١٧/٥٩٦ - حرف الفاء).

(٣) العرب والترك- توفيق برو- ٣٩.

(٤) المؤتمر العربي الأول- ٦٨.

بوجوب الثورة في بعض الأحوال، ورأوا بناءً على الانقلاب الفرنسي (العظيم)، أن الثورة إذا أجدت وكانت في موضعها أتت بحير كثير .. وهذا الخط من التفكير شديد الوضوح والجلء عند أمين الريحاني، ولكنه ملموس عند المفكرين والأدباء — من أعضاء الجمعيات القومية العربية —.

فيقول الريحاني عن الثورة: (من الحقائق الرائعة أن الثورة للأمة كالحمام للإنسان، تنبه فيه الدم وتوقظ النشاط، ناهيك بالنظافة) وفي حكم منطقة الشرق من يقول: (إن الخمود الملازم لحكومات الشرق كلها، والفساد الذي اعتراها، والأقذار التي تراكمت عليها، لا يزيلها غير الحمام حمام الثورة الغالي)^(١).

ومن خلال تتبع دراسات أعضاء الجمعيات القومية التركية والعربية نجد أن الكثير منهم قد تلقوا العلوم والمعارف في أوروبا، فكان الأعضاء البارزون في جمعية تركية الفتاة قد ذهبوا إلى أوربة، حيث تركز معظمهم في باريس. وقد ذهب القادرون على السفر لغرضين، أحدهما: الهروب من انتقام السلطان، وثانيهما: لإكمال دراستهم^(٢).

وجمعية العربية الفتاة كما يقول أحمد قدرى — أحد المؤسسين لها —: إن الهيئة الإدارية للجمعية تألفت في باريس، وكانت تضم سبعة أشخاص هم:

(١) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي-رثيف حوري-١٢٩.

(٢) تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨-أرنست أ.رامزور-٥٤.

عوني عبدالهادي، رفيق التميمي^(١)، محمد رستم حيدر، محمد المحمصاني، عبدالغني العريسي، صبري الخوجة، توفيق الناطور، أحمد قدرى، وجميعهم كانوا يواصلون دراساتهم العالية في العاصمة الفرنسية^(٢).

وغيرهم كثير من أعضاء الجمعيات القومية العربية، الذين تلقوا تعليمهم في أنحاء أوروبا وفرنسا خاصة، وعندما عادوا إلى بلادهم أخذوا يطالبون بإصلاح جذري يشمل جميع مرافق الإمبراطورية ومؤسساتها^(٣)، ويؤسسون لهذه المطالب جمعيات وأحزاب تتبنى قضيتهم ومطالبهم.

ويحدث أحد أعضاء الجمعيات القومية عن حياتهم في البعثة العلمية إلى باريس، فيقول: (إننا نحن السوريين، كنا نعيش أحراراً في باريس، بينما زجت الحكومة الفرنسية بالأتراك في غياهب السجون.. وقررت فرنسا أن تحاول استخدامنا في بث الدعاية لها في البلاد التي تقيم فيها جاليات سورية في أوربة، وخاصة أمريكة، وكان ممن لى دعوتها هذه لحاجتهم الماسة جميل مردم بك ويوسف الخازن. وقلت لجميل مردم، أن يغتنم فرصة اجتماعه بإخواننا في المهجر ليحدثهم عن آمالنا وأمانينا في مستقبل العرب، وأن يعمل على ضم من يأنس بهم الوطنية والخلق الحسن إلى جمعية العربية الفتاة التي أنشأناها في باريس سنة ١٩١١ (١٣٢٩هـ). وكان جميل بك من أعضائها^(٤)).

(١) انظر الترجمة رقم (٢٧).

(٢) مجلة العربي-العدد ١٥١-يونيو ١٩٧١-مقال بعنوان/العربية الفتاة-سليمان موسى-ص ٥٢.

(٣) جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريموي-٣٥. وانظر: اتجاهات الفكر المعاصر في مصر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري-حمد الجمال-١/٣٤٣.

(٤) عوني عبدالهادي أوراق خاصة-إعداد: خيرية قاسمية-١٧.

ويستمر أثر البعثات العلمية في نشأة الجمعيات القومية العربية، حتى بعد تقسيم البلاد العربية. فقد نشأ حزب البعث الذي يعد من أهم الأحزاب السياسية التي تبنت القومية العربية في تلك الفترة، وتولى تأسيسه وقيادته ميشيل عفلق وصلاح البيطار عن طريق البعثات التعليمية، حيث كانا المؤسسين له وقد أنهيا دراستهما الجامعية في باريس، الأول: حصل على إجازة في التاريخ، والثاني: على إجازة في العلوم، وهناك نما بالفعل تكوينهما الفكري ووعيهما السياسي^(١).

وقد اطلعنا على مزيج من التيارات اليسارية التي نشطت في باريس، وتأثرا ببقايا الفكر القومي في أوروبا، وكتابات الثورة الفرنسية^(٢).

السبب الثاني: كتابات بعض دعاة الفكر القومي:

إن عملية التطور التي تصل بين ظهور الجمعيات العلمية ونشوء التنظيمات والجمعيات السياسية، عملية أسهم بها إسهاماً خاصاً، الرواد من المفكرين والدعاة الذين دعا بعضهم بدعوات لفتت نظر كثير من شباب العرب، وقدحت في أذهانهم كثيراً من الأفكار مما كانت سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، مع الملاحظة أن المبادئ القومية التي دعا إليها بعض المفكرين قبل نشأة الجمعيات القومية تركزت حول المطالبة بالإصلاح، إصلاح الحكم، والقضاء على الفساد فيه. وكانت تعني أيضاً مطالبة العرب بمساواتهم مع الأتراك في

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-١٩/١-الطبعة الأولى ١٩٧٩.

(٢) سياسي يتذكر-٥١.

الحقوق والواجبات، والمطالبة بقسط أوفر من الحرية السياسية والمدنية^(١). وبناء على المساواة فقد أثاروا قضية علاقة المسلم العربي بالنصراني العربي، وأثما أخوان على مبدأ العروبة، والوطنية. ويلزم من هذا تناسي التفرقة في الأديان.

وأختار نموذجاً واحداً للدعاة والمفكرين القوميين، وهو: عبدالرحمن الكواكبي، وسأحصر الحديث عن الموضوعات التي طرحها وكانت سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية.

يذكر أحد معاصريه بأن الكواكبي قد أكثر من الكتابة في أغراض سياسية وإدارية وحقوقية واقتصادية. وألف أربعة كتب لم يبق منها إلا (طبائع الاستبداد) و(أم القرى). أما الكتابان الآخران (صحائف قريش)^(٢) و(العظمة لله). وكانت كتابات الكواكبي تدور في دائرة لا تكاد تتبدل، وهي الإصلاح السياسي والديني. وأنشأ في مصر حلقة واسعة ومتنوعة تضم النصارى واليهود إلى جانب المسلمين، وكان يطبق في حياته المبدأ الذي دعا إليه.

وعن تأثير كتابات عبدالرحمن الكواكبي في تأسيس الجمعيات القومية العربية، فقد قال عنه محمد كرد علي: بأن له الفضل بتبنيها الأفكار، ووصف

(١) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٩.

(٢) أشار إليه في أم القرى، فقال: (أخطار): من يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على إشاعته بين الموحدين، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ما سيتلوه من نشرات الجمعية باسم (صحائف قريش) التي سيكون لها شأن إن شاء الله في النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية-أم القرى-٢. ويتحدث أسعد الكواكبي عن هذا الكتاب، فيقول: إنه كان معداً للطبع ولكن حال دون ذلك سياحته الطويلة، ثم وقوع الوفاة الفجائية، فصدر مع الأوراق المصادرة وأرسل هدية إلى السلطان، فلم أعثر له على أثر. -عبدالرحمن الكواكبي-أسعد الكواكبي-مجلة الحديث-(حلب) السنة ٢٦-العددان ٩-١٠-١٩٥٢-٥٤٨-٥٤٩.

شقاء الأمة فأبدع بدعوته بدعة حسنة لم يسبق إليها. فأودى بحياته ليؤسس للعرب دولة ترعاهم، وتوفّر على حمل النور إليهم^(١).

قدم الكواكبي كتابين عرض فيهما أطروحاته الفكرية والتي أثرت في أعضاء الجمعيات القومية العربية، وهما كتابي: (طبائع الاستبداد) وكتاب (أم القرى)^(٢). وفي هذين الكتابين بيان لضعف العالم الإسلامي عامة وأقطاره العربية خاصة، وبيان أسباب هذا الضعف وأنواع علاجه الممكنة، وفيهما دعوة حارة إلى اقتباس العلاج الصحيح.. وهذان الكتابان من حيث هما مشاركة في الحركة العربية، يتبوان مكانة فريدة وحدهما في أصالتهما، واتساع أفقهما وجرأتهما^(٣).

ويؤكد محمد عزة دروزة — أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية — أن ما قدمه الكواكبي من كتابات ومقالات كان لها أثر عظيم في أفكار ناشئة

(١) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٨٤(بتصرف)

(٢) بعض الدراسات عن عبدالرحمن الكواكبي، ما يلي:

- أ- المعاصرون -محمد كرد علي-٢٧٩.
- ب- الكواكبي إحيائه وآراؤه-محمد أحمد خلف الله.
- ت- عبدالرحمن الكواكبي الرحالة-عباس محمود العقاد
- ث- عبدالرحمن الكواكبي-سامي الدهان.
- ج- مهرجان عبدالرحمن الكواكبي-الجمهورية العربية المتحدة
- ح- عبدالرحمن الكواكبي (شهيد الحرية ومجد الإسلام)-محمد عمارة.
- خ- الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة-جان دابه
- د- الأعمال الكاملة للكواكبي-محمد جمال الطحان.

(٣) بقظة العرب-جورج انطونينوس-١٧٠.

العرب ووعدهم ويقظتهم، مما جعلهم يعدونه من أبرز رجال النهضة القومية وموقظيها^(١).

بل لقد قرر بعض القوميين أن آراء الكواكبي لا تختلف عما ينادي به اليوم أعمق الوطنيين من زعماء العرب، فهو يدعو إلى التسامح الديني، واجتماع المسلمين والنصارى على حب الوطن والدفاع عنه، ويهاجم الاستعمار الغربي^(٢).

ويقول مصطفى الشهابي — أحد أعضاء الجمعيات القومية —: لقد عُذ الكواكبي من كبار رجال النهضة الحديثة، وانتفع بكتاب (أم القرى) كثير من شبان الرعيل الأول وكانوا يطالعونه في دمشق، وينقلونه في السر من واحد إلى آخر^(٣).

وعن علاقة الكتابين وارتباطهما الفكري القومي، يقول رشيد رضا: (إن سجل (أم القرى) يتطرق إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، وكتاب طبائع الاستبداد يتطرق إلى الإصلاح السياسي)^(٤).

ولم تقتصر الجهود الفكرية التي قدمها الكواكبي في هذين الكتابين، فقد كان له جهود في المجال الصحفي، فمن ذلك: تولى في شبابه تحرير جريدة

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٤٢.

(٢) مهرجان عبدالرحمن الكواكبي-أثر الكواكبي في النهضة العربية-صالح الأشقر-٨٥-القاهرة-١٩٦٠.

(٣) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٥٨.

(٤) المنار-السنة العاشرة-العدد العاشر-١٩٠٨-ص ٧٢٧.

(الفرات) الرسمية التي كانت تصدر باللغتين العربية والتركية، وأصدر خلال ذلك جريدة سماها (الشهباء) فأغلقتها الحكومة بعد مدة بدعوى أنها نشرت أفكاراً لا يجوز نشرها.. ووافى مصر وأخذ ينشر في مصر جريدة (المؤيد)^(١).

لم تكن معالجات الكواكبي لواقع مجتمعه مجرد أطروحات فكرية فقط، وإنما قال عنه أعضاء الجمعيات القومية دخل إلى ميدان الوظائف الحكومية، وأعلن سخطه على الطغيان وندد به.. وهرب إلى مصر ليعيش في جوها الذي يتيح قسطاً أكبر من الحرية^(٢).

وباستعراض للموضوعات التي ناقشها الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد) نجد أنه يُعتبر من أجراً من كتب في الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية. وفي محاربة الاستبداد وبيان أثره السيئ في شتى نواحي المجتمع، علمية وخلقية ودينية واقتصادية وعمرانية^(٣).

وكتاب طبائع الاستبداد، يحتوي على مقدمة وسبعة فصول منها، الاستبداد والدين، الاستبداد والمجد، الاستبداد والتربية، الاستبداد والترقي، الاستبداد والتخلص منه^(٤).

وفي تفصيل أدق لبعض مباحث هذا الكتاب، نجد الكواكبي حينما يعالج موضوع الاستبداد في الحياة السياسية وأبعاد هذه المسألة يقول: (هذه خمسة

(١) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٨٠-٢٨١.

(٢) بقظة العرب-جورج انطونيوس-١٦٨.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-محمد محمد حسين-٢٦٦/١.

(٤) انظر : طبائع الاستبداد-الكواكبي -٧- مطبعة الدستور-مصر.

وعشرون مبحثاً كل منها يحتاج إلى تدقيق عميق، وتفصيل طويل، وتطبيق عن الأحوال والمقتضيات الخصوصية، وقد ذكرت هذه المباحث تذكراً لأولى الأبواب وتنشيطاً للنجباء. نذكر بعض هذه المباحث:

- ١ — مبحث ما هي الأمة أي الشعب.
- ٢ — مبحث ما هي الحكومة.
- ٣ — مبحث ما هي الحقوق العمومية.
- ٤ — مبحث التساوي في الحقوق.
- ٥ — مبحث الحقوق الشخصية .
- ٦ — مبحث نوعية الحكومة.
- ٧ — مبحث المراقبة على الحكومة.
- ٨ — مبحث حفظ السلطة في القوانين.
- ٩ — مبحث كيف توضع القوانين.
- ١٠ — مبحث توزيع الأعمال والوظائف.
- ١١ — مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم^(١).

وتعرض الكواكبي لبعض الأفكار والمبادئ عن موضوع الاستبداد التي ذكرها في كتابه. فقال: (الاستبداد ربح صرصر فيه إعصار يجعل الإنسان كل

(١) طبائع الاستبداد-الكواكبي-١٣٩-١٤٦.

ساعة في شأن، وهو مفسد للدين في أهم قسميه ، أي الأخلاق.. ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور، أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات^(١).

ولما كانت الإرادة والاستبداد عنصران متناقضان، قرر الكواكي قيمة الإرادة، بأنها (لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة، فهي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النباتات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فأسير الاستبداد الفاقد الإرادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلاً عن الإنسانية)^(٢).

وبين الكواكي مفهوم الحرية، وأن أكثر المصائب جاءت بفقدانها، فقال: (إن البلية فقدنا الحرية، وما أدري ما الحرية، هي ما حرمانا معناه حتى نسيناه، وحرماننا علينا لفظه حتى استوحشناه، وقد عرف الحرية من عرفها: بأن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم). ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة. ومنها: حرية التعليم، وحرية الخطابة والمطبوعات، وحرية المباحثات العلمية، ومنها العدالة بأسرها^(٣).

ومطلب الحرية أكثرت الجمعيات القومية في مطالبته، حتى أصبح من الشعارات التي نادى به، وأكد أعضاء الجمعيات القومية في المؤتمر العربي الأول،

(١) المصدر السابق نفسه-٩٥.

(٢) المصدر السابق نفسه-٨٠.

(٣) أم القرى-الكواكي-٣٢.

أن من أمانى العرب أن تكون .. صحافتهم مطلقة، وأقلام كتّابهم غير مقيدة، ومدارسهم تضاء بكهرباء الوطنية السورية^(١).

ويرى الكواكبي أن موضوع الاستبداد داء ينتشر في الأمة أجمع، فقال: (الحكومة المستبدّة تكون طبعاً مستبدّة في كل فروعها، من المستبدّ الأعظم إلى الشرطي إلى الفرّاش إلى كُنّاس الشوارع) ويشير بعبارة موجزة إلى أن هذا التسلسل لا يكون في الحكومة الدستورية، حيث: (إن وزير المستبد هو وزير المستبد، لا وزير الدولة، كما هو في الحكومات الدستورية..)^(٢).

وللاستبداد دور مهم في قلب كثير من المفاهيم، فمن ذلك كما يقول: (وقبيل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر، وتارك حقه مطيع، والمشتكي المتظلم مفسد. والنيب المدقق ملحد، والخامل المسكين هو الصالح الأمين. وقد أتبع الناس الاستبدادَ في تسميته النصحَ فضولاً، والغيرة عداوة، والشهامة عتوّاً، والحمية جنوناً.. كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة، والتحايل كياسة..)^(٣).

وهكذا صور الكواكبي في كتابه آثار السلطة المطلقة التي لا يجدها قيد في الحاكم والمحكومين على السواء، ليصل آخر الأمر إلى أن كل عللنا يمكن أن تردّ آخر الأمر إلى الاستبداد، وحينما حدد الداء قدم حلاً لهذه المشاكل، وهو

(١) المؤتمر العربي الأول-٦٨.

(٢) طبائع الاستبداد - الكواكبي-٥٢-٥٤.

(٣) المصدر السابق نفسه-٧٧.

التخلص من الاستبداد. ويكون ذلك بالطريقة التالية: (.إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس.. ومبنى قاعدة، وأنه يجب قبل مقاومة الاستبداد هيئة ماذا يستبدل به^(١).

لقد كانت هذه الكتابات من أبرز القضايا التي تبنتها الجمعيات القومية، بل قد يقال إن الجمعيات القومية العربية لم تؤسس إلا لتحقيق هذه القضايا. وبطرحه القومي لموضوع الاستبداد، قد يظهر عليه التأثير بالثورة الفرنسية، حيث عرض في كتابه طبائع الاستبداد سبيلين من سبل الإصلاح في نظره وأثنى عليهما، فأولهما: (سبيل النبيين) وثانيهما: (سبيل الفئة التي اتبعت أثرهم) يعني (فئة الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد، ولا تمسكوا بمعادة كل دين، بل ارتقوا فوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا) وضرب مثلاً لهذه الفئة فذكر (مؤسسي جمهورية الفرنسيين)^(٢).

والكتاب الآخر للكواكبي هو كتاب (أم القرى) وهو عبارة عن أسلوب محاضر جلسات مؤتمر تخيل انعقاده في مكة لبحث شؤون المسلمين، وما ألم بهم وبالإسلام وطرق معالجة ذلك، يحضره علماء وزعماء المسلمين، من اثنين وعشرين قطراً من أقطار العالم الإسلامي، قد اجتمعوا في مكة للحج. ويناقد

(١) المصدر السابق نفسه-١٤٧.

(٢) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجهه السياسي والاجتماعي-ريث خوري-١٢١. وانظر: طبائع الاستبداد-٩٢.

المجتمعون أحوال المسلمين. وينددون في سياق ذلك بالاستبداد والظلم وانتقاد الحرية.

وبعد أن تبادلوا الآراء في أكثر من اثني عشر اجتماعاً رسمياً، قرروا أن ينشئوا جمعية ترمي إلى إحياء الإسلام والنهوض به^(١)، ونبذ سيادة الجهل والبدع والضلالات والتدجيل، ويقررون وجوب الرجوع إلى المبادئ الإسلامية من حق وعدل وحرية ومساواة وشورى وعلم وعمل، وإقامة خلافة عربية قرشية مستكملة للشروط الشرعية، وقائمة على أساس الشورى والحرية والحق، على أن يقوم في كل قطر حُكْمٌ يقوم عليه الصالحون من أهله بمصادقة الخليفة وعلى أساس الحرية والحق والشورى^(٢).

وكتاب أم القرى قد يكون أقوى صراحة في عباراته ومعانيه في مواجهة الدولة العثمانية، والحكم العثماني، حيث صرح الكواكبي في أم القرى بأن الخلافة يجب أن تكون عربية، بل يجب إقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية، وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء المسلمين.^(٣)

لقد أبرز الكواكبي في (أم القرى) عدة قضايا فكرية هامة كانت سبباً في تأسيس الجمعيات القومية العربية، ويمكن حصرها بالنقاط التالية:

١- تحقيق مطلب إقامة خلافة عربية قرشية:

(١) يقظة العرب-جورج انطونبوس-١٧٠.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٤٢.

(٣) الاتجاهات الفكرية عند العرب-علي المحافظة-١٣٣.

وانظر : أم القرى-عبدالرحمن الكواكبي-٢٣٤-٢٣٥.

قال عبدالرحمن الكواكبي: (الجمعية لا يعينها غير أمر النهضة الدينية بناء عليه رأت الجمعية ... أن يكون الخليفة، خليفة المسلمين، عربياً قرشياً مستجمعاً للشرائط في مكة)^(١).

وقد نادى الجمعيات القومية العربية بوجود إقامة خلافة عربية قرشية يكون مقرها مكة المكرمة، ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض^(٢).

ولتحقيق هذا المطلب تبنت الجمعيات القومية العربية قضية ومناصرة ثورة الشريف حسين بن علي، لإقامة خلافة عربية، فهو عربي ينتهي نسبه ببيت النبوة. كما تبنت أن يكون مقر الخلافة في مكة^(٣). ويذكر نبيه العظمه — أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية — في مذكراته أن الشريف حسين كان يقول لنا: (أنا خاتم في إصبعكم)^(٤).

فيكون طرح الكواكبي لمسألة شروط اختيار الخليفة^(٥) ومقر الخلافة، من أبرز أسباب اختيار الجمعيات القومية العربية للشريف حسين قائداً للثورة العربية.

(١) أم القرى-الكواكبي-٢٣٤.

(٢) يقظة الأمة العربية-نجيب عازوري-٢٢٠.

(٣) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-محمد محمد حسين-٢٨٤/١.

(٤) الرعيل العربي الأول (حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة)-جمع خيرية قاسمية-٣٢.

(٥) من شروط الإمامة العظمى القرشية؛ كما نصت على ذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ و عن مسألة اشتراط القرشية في الإمامة، انظر:

أ- مقدمة ابن خلدون-٢٤٧/١.

ب- الأحكام السلطانية-الماوردي-٦.

ت- الفصل في الملل والأهواء والنحل-ابن حزم-٨٩/٤.

ث- الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة-عبدالله الدميجي-٢٦٥.

وتأكيداً^(١) لأحقية العرب بالخلافة بين الكواكبي قيمة العرب وبالذات عرب الجزيرة ومكانة الجزيرة العربية، ومدى صلاحية أهلها أن يقوموا بالخلافة الدينية، لذا أصدرت الجمعية القرارات ومنها:

قرار عدد (٦) إن الجمعية بعد البحث الدقيق والنظر العميق في أحوال وخصال الأقاليم المسلمين الموجودين، وخصائص مواقعهم، والظروف المحيطة بهم، واستعداداتهم، وجدت أن الجزيرة العربية ولأهلها بالنظر إلى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم... والتي منها:

- ١ — الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً.
- ٢ — الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخطا جنسية وأدياناً ومذاهب .
- ٣ — الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.
- ٤ — عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبتهم لغيرهم.
- ٥ — عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال^(٢).

(١) انظر:

- أ- تاريخ الدولة السعودية- أمين سعيد- ١٠٦/٢.
 - ب- الهاشميون والثورة العربية الكبرى- ٢٥.
 - ت- العرب والعثمانيون- عبدالكريم عثمان- ٥٤٥.
- (٢) أم القرى- الكواكبي- ٢١٨-٢٢٠.

وعلى منهج الكواكبي في قيمة الجنس العربي، قرر أعضاء الجمعيات القومية أن الدم العربي الأصلي ما يزال حياً متمثلاً إلى الآن في جزيرة العرب، التي يتصل سكانها بسائر مواطن العرب الأخرى... اتصالاً وثيقاً، والتي ظلت وما تزال تمدهم من آن لآخر بحيويتها المستمرة ومواجهتها الكبرى والصغرى الدائمة^(١).

٢ - الطعن في حكم الأتراك:

قد يكون هناك تلازم في الفكر القومي عند الكواكبي بين الشاء على العرب، وبين القدح في الأتراك، وقد أكثر من ذم سلاطين الترك في كتابه أم القرى، من جوانب متعددة من أبرزها ما يلي:

أ - الشك في إسلام الترك: فقد قال: (إن إسلامهم - الترك - فيه ريبة، وسبب الريبة أن الأتراك لم يخدموا الإسلام بغير إقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم. وأهم أتوا الإسلام بالطاعة العمياء للكبراء)^(٢).

وعن إعلان حكام الترك للإسلام وإقامة شرع الدين، بين الكواكبي أنهم يفعلون ذلك بقصد الرياء، فإنهم لا يتراءون بالدين إلا بقصد تمكين سلطتهم على البسطاء من الأمة، كما أن ظواهر عقائدهم وبواطنها تحكم عليهم بأنهم مشركون ولو شركاً خفياً من حيث لا يشعرون^(٣). فاحترام الشعائر الدينية في

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ٢١.

(٢) أم القرى - الكواكبي - ١٧١.

(٣) المصدر نفسه - ٣٧.

أكثر ملوك آل عثمان هي ظواهر محضة، وليس من غرضهم، بل ولا من شأنهم أن يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك^(١).

ب — ضعف قدرة سلاطين الأتراك على سياسة البلاد: الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة، وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صماً بكماً عمياً ولا مرشد. أليس الترك قد تركوا الهند مساهلة، وتركوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروسين، وتركوا قارة أفريقيا الإسلامية للطامعين... أفما آن لهم — الترك — أن يستيقظوا ويصبحوا من النادمين على ما فرطوا في القرون الخالية، فيتركوا الخلافة لأهلها والدين لحماته^(٢).

ووقعت حوادث بعد إعلان الدستور، أظهرت عند أعضاء الجمعيات القومية حقيقة ضعف الأتراك على إدارة الدولة، فمن تلك: موقف حكومة الاتحاديين من غزو إيطاليا لطرابلس الغرب، وكتابة معاهدة بينها وبين إيطاليا في عام ١٩١٢ تقضي باعتراف تركيا بسيادة إيطاليا على طرابلس وأن تكون خاضعة خضوعاً تاماً للسيادة الملكية الإيطالية. فكان لهذا الصلح أثره السيئ على أعضاء الجمعيات القومية العربية، مما جعل عزيز علي المصري — مؤسس جمعية العهد — يترك طرابلس الغرب ويعود إلى الآستانة، وأصبح يقال ويشاع: (إن الترك قد سلموا العرب لأعدائهم)^(٣).

(١) المصدر نفسه-٢٢٨.

(٢) المصدر السابق-٢٣٩.

(٣) انظر: العرب والترك-توفيق برو-٣٣٦-٣٣٧. وانظر: العرب والعثمانيون/عبدالكريم رافق/٤٧٧.

ومن صور قدح الكواكبي في حكام الأتراك، قضية توزيع الزكوات، حيث قال: إن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم، فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء، وهذه الحكومات الإسلامية، قد قلبت الموضوع، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابي بها المسرفين والسفهاء^(١).

وعلى غرار مآخذ الكواكبي على سلاطين الدولة العثمانية، سلكت الجمعيات القومية العربية هذا المسلك متأثرة بكتابات الكواكبي، فمما قالوا: (لم يهتم الترك منذ أن استولوا على البلاد العربية وعلى الخلافة بالتفاهم مع العناصر الأخرى التي يحكمونها، ولا سيما العنصر العربي، وقد جعل هذا العنصر بعد ثورة ١٩٠٩ يشكو من سوء ما يعامل به، وكيف أن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم، — ثم بينوا هضم حق العرب — وقالوا: كأن الترك يخافون منا، ومن عددنا، ومن فكرتنا الاستقلالية^(٢)).

ويصف أعضاء الجمعيات القومية الدولة العثمانية بأنها دولة محتلة للبلاد العربية، وأن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية، قوى نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها تسهياً كبيراً.. بل إن فكرة (الخلافة العثمانية) ساعدت كثيراً على استسلام العرب للحكم العثماني، وأخرت كثيراً نشوء فكرة القومية العربية^(٣).

(١) أم القرى-الكواكبي-٦٠.

(٢) العرب والترك-توفيق برو-١٥٠.

(٣) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٢٩ و٣٦.

وقد بين عبدالغني العريسي أثناء انعقاد المؤتمر الأول الذي عقد في باريس، أن الحكومة العثمانية تعامل الجنسيات العثمانية معاملة الغالب للمغلوب على قاعده (حق الفتح)، وأكد بأن الدولة العثمانية إذا استطاعت أن تدعي (حق الفتح) في بلاد البلقان مثلاً فلا تستطيع أن تدعيه لا حقاً ولا حقيقة في البلاد العربية... فإنما نحن الرعاة لا الرعية^(١).

٣- العداء بين العرب والترك:

قد يكون إثارة موضوع الخلاف بين الترك والعرب من الموضوعات التي أثرت بعد إعلان الدستور، ومحاولة فرض سيطرة أعضاء تركية الفتاة على زمام الحكم ومن ثم الدعوة إلى تترك الدولة، إلا أن في كتابات الكواكبي نجد طرح مسألة الخلاف بين الترك والعرب، مما يؤكد أن كتاباته تعد من أبرز أسباب تحيز العرب لعروبتهم.

وقد استعرض الكواكبي قضية عدم تطابق الأخلاق بين الرعاة والرعية، وبين أن هناك أمماً مختلفة قد تخلقت بأخلاق الرعية، واتحدت معها في عوائدها ومشاربها حتى ولو في العوائد غير المستحسنة في ذاتها^(٢).

وبعد هذا العرض لموقف الدولة العثمانية من رعاياها، قال: (فلم يشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك أي العثمانيين، فإنهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم، فلم يسعوا باستراحتهم كما أنهم لم يقبلوا أن

(١) المؤتمر العربي الأول-٤٣-٤٤.

(٢) أم القرى-الكواكبي-١٦٨.

يستعربوا.. ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب كما يستدل عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الأمثال في حق العرب: كإطلاقهم على عرب الحجاز (ديلنجي عرب) أي العرب الشحاذين .. وتعبيرهم بلفظة (عرب) عن الرقيق وعن كل حيوان أسود. وقولهم (بس عرب) أي عربي قدر..^(١).

لقد كانت هذه الكلمات من المبررات عند العرب للتحيز لعروبتهم، كما قال أحمد قدرى: (أنه شاهدنا ضابطاً تركيا يخطب في جمهور غفير عن حسنات الدستور والعهد الجديد وعن مساوئ العهد البائد، ويتحامل أثناء ذلك على اثنين من كبار خاصة السلطان عبدالحميد، وهما عزت العابد، والشيخ أبو الهدى الصيادي، فينعتهما بقوله «الخائن عرب عزة» و«الخائن عرب أبو الهدى»^(٢).

٤- فصل السياسة عن الدين:

من أبرز المسائل التي ناقشتها الجمعية في اجتماعها، مسألة علاقة السياسة بالدين، وما مدى علاقة الخليفة (الديني) بتنظيم الدولة.

لقد كان من مبادئ جمعية أم القرى، كما في القضية (١٤): لا تتداخل في الشؤون السياسية مطلقاً فيما عدا إرشادات أو إخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه^(٣).

(١) المصدر نفسه-١٦٩-١٧٠.

(٢) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى-أحمد قدرى-٦-١٣-دمشق-١٩٥٦.

(٣) أم القرى-الكواكبي-١٩٩.

وعن قرارات وأنشطة الجمعية ما ورد في القضية رقم (٤٣): تتحول الجمعية في البلاد الإسلامية القريبة والبعيدة، للاطلاع على أحوال البلاد وأهلها من حيث الدين والمعارف، وإرشادهم إلى ما يلزم إرشادهم إليه في ذلك حسبما تقتضيه الأخوة الدينية، بدون التعرض للأحوال السياسية قطعياً^(١).

وبهذا حدد مجال نظر الجمعية بأنه منحصر في النهضة الدينية فقط، وتؤمل أن يأتي الانتظام السياسي تبعاً للدين، ولكن الأصل في قرار الجمعية: أن السلطان المعظم يصلح أن يكون عضداً عظيماً في الأمر، أما إذا أراد أن يكون هو القائم به فلا يتم قطعياً، لأن الدين شيء والملك شيء آخر، والسلطان غير الدولة^(٢).

وبعد فصل السلطة السياسية عن الدين، أصّل الكواكبي قواعد ومهام الخلافة، في نظر الجمعية، فقال:

فقرة (٢): يكون حكم الخليفة سياسة مقصوراً على الخطة الحجازية، ومربوطاً بشورى خاصة حجازية.

فقرة (٤): تتشكل هيئة الشورى العامة من نحو مائة عضو منتخبين، مندوبين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية، وتكون وظائفها منحصرة في شؤون السياسة العامة الدينية فقط.

فقرة (١٢): الخليفة لا يتداخل في شيء من الشؤون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات قطعياً.

(١) المصدر نفسه-٢٠٩.

(٢) المصدر نفسه-٢٢٧-٢٢٨.

فقرة (١٤): الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقاً، ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين ... أما وظائف الشورى العامة فيقتضي أن لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية التي لها تعلق مهم في سياسة الأمة، وتأثير قوي في أخلاقها ونشاطها. ومن ذلك: ...فتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب^(١).

ولقد أكثر أعضاء الجمعيات القومية العربية من الحديث في مسألة الظلم والعدل، والطاعة المستنيرة والطاعة المطلقة، وقرر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكومة الآستانة غير مستوفية الشروط والأركان من وجهة العدل مادام حقنا غير محفوظ، لأن الحكومات في نظر (إعلان حقوق الإنسان) لا تكون مشروعة إلا إذا احترمت حق الأفراد فمن باب أولى حق الجماعات والشعوب^(٢).

٥- الحكم المركزي واللامركزي عند الكواكبي:

في تحديد مهام الملك عند الكواكبي يظهر طرحه لمبدأ الحكم المركزي واللامركزي، فقد قال: (الملك وظيفته النظارة العامة وانتخاب وزير يتق بأخلاقه، ويعتمد على خبرته ... فالملك إذا تغرر وتنزل للتداخل في أمور السياسة أو الإدارة الملكية أو الأمور الحربية أو القضاء، فلا شك أن يكون كَرَبٌ بيت

(١) المصدر السابق - ٢٣٠.

(٢) المؤتمر العربي الأول - ٤٩.

يداخل طبّاخه في مهنته، ويشارك بستانيه في صنّعه، فيفسد طعامه ويور بستانه، فيشتكي ولا يدري أنّ آفته في نفسه^(١).

ويندرج هذا الحكم على الأمة، فتصاب بالفتور والذي من أبرز أسبابه: السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية. وحرمان الأمة من حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل، وكذلك فقدان العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة، وإبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار. وينتج من هذا فقدان قوة الرأي العام بالحجر والتفريق^(٢).

لقد ركز الكواكبي على مطلب الحكم اللامركزي، وبين أن اللامركزية في الحكم، لا تتحقق بتوحيد القوانين في الدولة، مع اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي في الأجناس والعادات، وأكد الكواكبي ضرورة أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي إداري، يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم، كما هي الحالة في إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشمالية.

وبعد أن بين الكواكبي مفاصد الحكم المركزي، ومحاسن الحكم اللامركزي، ذكر أن الدولة العثمانية تطبق الحكم المركزي، ذاكراً بعض صور مركزية الحكم في ذلك، منها:

التمسك بأصول الإدارة المركزية مع بُعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الإدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتباعدة وخصائص سكانها.

(١) أم القرى-الكواكبي-١٧٧.

(٢) المصدر السابق-١٦٠.

وكذلك: التزام المخالفة الجنسية في استخدام العمال بقصد تعسر التفاهم بين العمال والأهالي، وتعذر الامتزاج بينهم لتأمين الإدارة غائلة الاتفاق عليها. والتمييز الفاحش بين أجناس الرعية في الغنم والغرم، وإدارة المصالح المهمة السياسية والملكية بدون استشارة الرعية ولا قبول مناقشة فيها. وإن كانت إدارة مشهودة المضرة في كل حركة وسكون.

وهذا المسلك غير محمود في الحكم، كان من آثاره على الدولة العثمانية — كما ذكر الكواكبي — أن الدولة العثمانية وقعت في الغفلة أو التغافل عن مقتضيات الزمان ومباراة الجيران وترقية السكان، بسبب عدم الاهتمام بالمستقبل والضغط على الأفكار المتنبهة بقصد منع نموها وسموها واطلاعها على مجاري الإدارة، محاسنها ومعايها^(١).

إن قضية الحكم اللامركزي شغلت حيزاً كبيراً من مطالب الجمعيات القومية العربية، ولذا أسس أعضاء الجمعيات القومية العربية جمعية باسم (الجمعية اللامركزية). وخلال المؤتمر العربي الأول تناول أعضاء الجمعيات القومية العربية، قضية الحكومة اللامركزية، وكان أكثر من تناولها بالتركيز، مندوب الجمعية اللامركزية (اسكندر عمون)^{(٢)(٣)}.

ويتفق مفهوم الحكومة اللامركزية عند الجمعيات القومية العربية، مع مفهوم الكواكبي، بأنها توزيع السلطة الإدارية على المراكز المختلفة التي يتألف

(١) أم القرى-الكواكبي-١٦٣-١٦٦.

(٢) انظر الترجمة رقم (٦).

(٣) المؤتمر العربي الأول-٩٨-١٠٤.

منها الجسم السياسي والاجتماعي، عوضاً عن حصرها في جزء واحد مركزي، ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة به بنفسه عن علم، مع حفظ الصلة بالمركز حرصاً على مصلحة الكل^(١).

وتعتبر مجلة (المنار) ما قدمته من كتابات حول موضوع فوائد الحكم اللامركزي، تأصيلاً لهذه القضية، فقد قامت (المنار) بدراسة مقارنة عن فوائد الحكم اللامركزي، وضرر المركزية، مبينة أن الحكومة العثمانية قد أعجزها تنائي أطراف المملكة، و اختلاف لغات وأجناس ومشارب أهلها عن تنفيذ قوانينها في كل ولاية، فحاجت اللامركزية توزيع التبعة على أفراد الأمة بمقدار ما تعطيه من السيطرة على مصالح الوطن... وتصل دراسة (المنار) إلى : أن الحكومة المركزية غير قادرة على الدفاع عن أكثر البلاد العثمانية إذا هاجمها عدو أجنبي، ولذلك فإن المملكة ستكون عرضة لخطر الزوال، وبالتالي تكون الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال^(٢).

٦- الولاء والبراء عند الكواكبي:

إن ما كتبه الكواكبي عن موضوع الولاء والبراء يُمكن من حصر القضايا التي تناولها في المناقشة، بما يلي:

(١) مجلة دراسات تاريخية-السنة الرابعة-العدد الحادي عشر-ربيع الأول ١٤٠٣هـ. مقال بعنوان تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين-سهيلة الريموي.

(٢) مجلة المنار-المجلد السادس عشر-الجزء الثالث-٨ مارس سنة ١٩١٣.

أ - الرابطة القومية مقدمة على الرابطة الدينية: قال الكواكبي (يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين. أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من أن لا تفتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون. فهذه أمم أستراليا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى، وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري..

— ويتساءل الكواكبي — .. فما لنا نحن ألا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحنة من الأعاجم والأجانب: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء، وتراحم بالإحباء، وتتواسى في الضراء، وتتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي (فلتحي الأمة، فليحي الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء)^(١).

لقد كانت هذه الكلمات ومثيلاهما، من أبلغ الحجج عند أعضاء الجمعيات القومية، في تأسيس الجمعيات القومية العربية على أساس الرابطة القومية، وأن يقولوا: استطاعت المثل العليا المشتركة أن تجمع بين العقائد المتناحرة، وتوحيدها في رابطة إيجابية فعالة، تعمل لتحقيق أهداف مشتركة، وأن يكون الحافز لهم إلى العمل هو اهتمامهم بتقدم البلاد على أساس الوحدة الوطنية. كما أصبح الرابط الذي يؤلف بينهم هو اعتزازهم بالتراث العربي^(٢).

(١) طبائع الاستبداد-الكواكبي-١١٠-١١١.

(٢) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٩.

ب — مجازاة العرب للغرب: إن النهوض العلمي المادي في الدول الغربية كان من عوامل انبهار الكواكبي بالدول الأوروبية، ووجوب الأخذ بما عندهم من الصغير والكبير. فمما قال في تطور العلوم الرياضية والطبيعية في أوربا: أخذت هذه العلوم تنمو في الغرب، وعلى مرّ القرون، ترقّت وظهر لها ثمرات عظيمة في كافة الشئون المادية والأدبية، حتى صارت كالشمس، لا حياة لذي حياة إلا بنورها، فأصبح المسلمون مع شاسع بعدهم عنها محتاجين إليها لمجاعة جيرانهم، احتياجا يعم الجزئيات والكلّيات: من تربية الطفل إلى سياسة الممالك... بل أضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقلية، التي كادت تجعل الغربيين أدري منا حتى في مباني ديننا^(١).

ويقرر الكواكبي أن مبدأ مجازاة المسلم للغرب، والأخذ عنهم من الشئون المادية والأدبية، ويعم الجزئيات والكلّيات: من تربية الطفل إلى سياسة الممالك. أنه مبدأ لا يخالف الإسلام، حيث أن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم، بل يستلزم الألفة، وذلك أن العرب أينما حلوا من البلاد، جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم. ويشمل مبدأ الألفة للغرب كما قرره الكواكبي لو أن الغرب استعمروا بلاد المسلمين، فيقول: إن المسلمين لم ينفروا من الأمم التي حلت بلادهم وحكمتهم، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك، بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأهمّ يدعون لكلمة ربهم تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢).

(١) أم القرى-الكواكبي-٥٣-٥٤.

(٢) المصدر السابق نفسه-٢٤٣-٢٤٤. وعن موقف الكواكبي من الجهاد. انظر: أم القرى-٢٤٢.

ج — تفضيل الحكم الأجنبي الكافر على حكم الأتراك: انطلاقاً من دافع مقاومة ما يسميه الكواكبي -ظلم واستبداد حكام الأتراك. فضل حكم من سماه الكافر العادل على حكم الأتراك، إذ أن حكام الترك حينما يضاف إلى شركهم ما هم عليه من الظلم والجور، يحكم عليهم بالشرع والعقل بأن ملوك الأجانب أفضل منهم وأولى بحكم المسلمين، لأنهم أقرب للعدل وإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد^(١). قد يكون من أسباب تفضيل الكواكبي حكم الكفار أنهم: لا يحذرون من الخلافة العربية، بل يرون من صوالجهم الخصوصية، وصوالج النصرانية، وصوالج الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية^(٢).

وينقم الكواكبي على من ينتقد طالبي الإصلاح وبخاصة حينما يتعرضون لنقد أمراء المسلمين، فيقول عن معارضي الإصلاح: يعتبرون طالبي الإصلاح من المارقين من الدين، كأن مجرد كون الأمير مسلماً يعني عن كل شيء حتى عن العدل، وكأن طاعته واجبة على المسلمين، وإن كان يجرب بلادهم ويقتل أولادهم ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية^(٣).

٧- التنظير في مسألة تأسيس الجمعيات:

في كتاب الكواكبي (أم القرى) إشارات وتصريحات في فضائل الجمعيات، وقد تعتبر بعض الآراء التي ذكرها الكواكبي، في مقام التنظير لتأسيس الجمعيات

(١) أم القرى-الكواكبي-٣٧.

(٢) المصدر نفسه-٢٤٣-٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه-٣٤.

القومية العربية، ومن تلك الآراء، قال الكواكبي: (.. إن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلاً.. وتأتي بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد.. وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظائم وتأتي بالعجائب، وهذا لا يبعد أن يتم لنا انعقاد جمعية منتظمة تنعقد الآمال بناصيتها، ولا ينبغي الاسترسال مع الوهم إلى أن الجمعيات معرضة في شرقنا لتيار السياسة فلا تعيش طويلاً، ولا سيما إذا كانت فقيرة ولم تكن كغالب الأكاديميات (أي المحامع العلمية) تحت حماية رسمية، بل الأليق بالحكمة والحزم الإقدام والثبات وتوقع الخير إلى أن يتم المطلوب... انتظام جمعية يكون لها صوت جهوري، إذا نادى مؤذنها حي على الفلاح.. ووظيفتها الأساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة وترقى بها في معارج المعارف، متباعدة عن كل صبغة سياسية^(١).

ويعتبر عبدالرحمن الكواكبي فقدان الجمعيات في بلاد المسلمين من أسباب انحطاط المسلمين، فيقول: لا تربية قويمه المبادئ، ينتج منها رأي عام لا يطرقه تخاذل وانقسام، ولا جمعيات منتظمة تسعى بالخير وتتابع السير، ولذلك حل فينا الفتور.. فلا تفقد الجمعيات إلا بسبب فقد الإحساس^(٢).

إن ظهور الفتور في الأمة في رأي الكواكبي بسبب فقد قوة الجمعيات وغمرة دوام قيامها^(٣). حيث أن دور الجمعيات عند الكواكبي أنها تسعى إلى: أولاً: لتنوير الأفكار بالتعليم، ثانياً: إيجاد شوق للترقي في رؤوس الناشئة^(٤).

(١) أم القرى-الكواكبي-١٨.

(٢) المصدر نفسه-٥٩.

(٣) المصدر نفسه-١٦١.

(٤) المصدر نفسه-١٩٢.

وهذا الانحطاط الذي حل بالمسلمين، لا يوجد بالأمة الغربية — كما يقول الكواكبي — لاهتمامهم بوسائل الاجتماعات والمفاوضات، فذكر من تلك الوسائل: إعدادهم في مدتهم ساحات ومنتديات، تسهيلاً للاجتماع والمذاكرات وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات. ومنها: نشرهم في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية^(١).

هذا بعض ما قدمه الكواكبي من أطروحات قومية، كانت — مع الأسباب الأخرى — سبباً من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية.

ومن خلال العرض السابق يلحظ أن الكواكبي قد وقع في مخالفات عقائدية، وذلك في تقريره لكثير من المسائل القومية، وسترجى المناقشة في باب مستقل إن شاء الله تعالى.

السبب الثالث: دور الصحافة في نشأة الجمعيات القومية:

والسبب الثالث من الأسباب الفرعية في نشأة الجمعيات القومية العربية الصحافة، ومما يؤكد على دورها قول البارودي — أحد أعضاء الجمعيات القومية — في مذكراته: بدأت عيوننا تتفتح على الحقائق القومية حول السنة ١٩٠٥-١٩٠٦ (١٣٢٣-١٣٢٤هـ).. بدأت أطلع بعض الصحف المصرية التي كانت تتسرب إلى دمشق، كالمقطم والأهرام والمؤيد، ولا أدري كيف تصل إلى دمشق لأنها كانت ممنوعة. وأذكر أن بعض أصدقاء لي كمحب الدين الخطيب وعثمان مردم بك، كانوا يأتون بعدد أو عددين من الجرائد المصرية

(١) المصدر السابق - ٦٣.

وينقلونها إلى عدد محدود من أصدقائهم من الشباب الناشئين، فيمر العدد من يد ليد بصورة خفية، دون أن يطلع على ذلك أحد^(١).

فكان أعضاء الجمعيات القومية، يقولون: طالما شاقنا استطلاع الأخبار فتسقطناها من بريد أجنبي أو جريدة في سفارة أو دار قنصلية... وليس هذا كل البلاء إذ لو حرمت علينا الكتابة في جرائدنا وأبيحت لنا قراءة الصحف المنتشرة في سائر الأقطار لقلنا شر أهون من شرين ولكن هيهات. حظرت المراقبة قراءة كثير من الجرائد المنتشرة في كل بلاد الله ولا سيما ما صدر في مصر^(٢).

لقد ظهرت جهود فردية مبكرة في نشر المبدأ القومي بالجانب الصحفي. تمثلت بصحيفة (نفيير سوريا) وهي صحيفة أسبوعية سياسية. وكذلك صحيفة (الجنان) وهي صحيفة سياسية أدبية تصدر كل أسبوعين وتولى إصدارهما بطرس البستاني^(٣). وغيرها من الصحف. إلا أن هذه الصحف ركزت على قضية ما يسميه القوميون بالتسامح الديني، والدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة. وذلك تعايشاً مع النظام المقرر و(الإصلاحات) التي قدمتها الدولة العثمانية على الأمة الإسلامية وكان من أبرزها: (عدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، دون النظر إلى مذاهبهم أو انتمائهم القومي، وحرية الممارسة للشعائر الدينية لكل المذاهب، وعدم تطبيق عقوبة الإعدام على المرتدين^(٤)).

(١) مذكرات البارودي-فحري البارودي-٥٧/١.

(٢) الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده- سليمان البستاني-٢٩.

(٣) يقضة العرب-جورج انطونوس-١١٤.

(٤) الأوضاع الثقافية في تركيا-سهيل صابان-٥. وانظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية-فريد بك المحامي.

لذلك جاءت أكثر المقالات مركزة على الانتماء القومي دون الديني، مثال ذلك ما نشرته صحيفة الجنان عام ١٨٧٠ (١٢٢٢هـ): (..لا أمل لنا بالعصبة الدينية لأن زمان النبوة قد مضى وقد تركنا الدين. والتمسك بالعصبة الدينية في هذا العصر هو سبب الضعف والتأخر، ولا سبيل للنجاح إلا بتركها وبالتمسك بالعصبة الوطنية^(١)).

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية إعلان الدستور إعلاناً لحرية الصحافة، وفتح لباب الصحافة على مصراعيه، فصدرت في دمشق أول جريدة يومية وطنية وهي جريدة (المقتبس) لمحمد كرد علي، وكانت إدارتها مجتمعاً للعلماء على اختلاف أقطارهم، ومما لاشك فيه أنها كانت الأولى التي نبهت أذهان الناس إلى واجبهم نحو وطنهم وكان يصدر منها يومياً (١٠٠٠) صحيفة^(٢).

وعن دور هذه الصحف في نشأة الجمعيات القومية وإشاعة الفكر القومي، يقول محمد كرد علي: إن الصحف قد علمتهم بسائط من التاريخ وحال الأمم وسياسات السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين وتدليس المدلسين... ولا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد، والاقْتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم. علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، وأن نعمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمر الدين والدين يذهب بالدين والدين معاً^(٣).

(١) مجلة (الجنان) ١٨٧٠ نقلاً عن سليم البستاني-سلسلة الأعمال المجهولة-ميشال جحا-١١٦.

(٢) تطور الصحافة السورية في مائة عام (١٨٦٥-١٩٦٥)-جوزيف الياس-١٨١.

(٣) خطط الشام-محمد كرد علي-٨٢/٤-مكتبة النوري-دمشق-الطبعة الثالثة-١٤٠٣.

وقد كانت بعض الصحف القومية تنص على أهدافها، فمن ذلك صحيفة القبس التي قال عنها شكري العسلي^(١) - أحد أعضاء الجمعية اللامركزية -: الغاية من إصدارها في هذه الآونة هي تنوير الفكر العام بيث الحقائق العلمية ونشر الأخبار الصحيحة وإحياء شعور الأمة ... فإن كانت الأمة جاهلة فيجب علينا أن نعلمها، وإن كانت غافلة فينبغي لنا أن نوقظها، وإن كانت تائهة فيحتم علينا أن نرشدها، وإن كانت قانطة فالواجب يقضي علينا أن نغرس في قلبها غرس الأمل الواسع^(٢).

وقد صرحت صحيفة (الشعب) في عددها الأول والذي صدر عام ١٩٠٩، بأن من مبادئ (الشعب): التهذيب، الانتقاد العادل، صدق الوطنية، تشجيع الناشئة وترقيتها .. ومن أخص مبادئ الشعب: مساعدة الجمعيات والأندية الأدبية والمدارس والمكاتب والسعي في نشر ما طوي من محاسن اللغة العربية^(٣).

لقد أصبحت الصحف العربية تبحث في المسائل التي تطالب بها الجمعيات القومية، فمن ذلك الدفاع عن العنصر العربي، والتغني بأجماد العرب بمناسبة أو غير مناسبة، وتندد بالإجراءات المتخذة ضد العنصر العربي. كمقالة بعنوان (المسألة العربية)، ومما جاء فيه:.. إن لفظة عربي وتركي لا يسوغ أن تقال في عصر الاستبداد، فهل يليق أن يتلفظ بها في عهد الدستور. وإن كان بعض

(١) انظر الترجمة رقم (٣٨).

(٢) تطور الصحافة السورية في مائة عام (١٨٦٥-١٩٦٥) - جوزيف الياس - ١٣٢ - دار النضال - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٢. وانظر: القبس - العدد الأول - ٣٠ أيلول ١٩١٣.

(٣) تطور الصحافة السورية - ١٤٣.

أفرادنا يشكون من حرماننا من الوظائف العالية.. ثم دعى المقال إلى المساواة بين العرب والترك، وتعليم اللغة العربية^(١).

وتشارك الصحف الصادرة في مصر الصحف العربية الأخرى في إثارة القوميين في تأسيس الجمعيات الخاصة بهم، فمن تلك الصحف صحيفة (مصر)، ففي بيان منهج الصحيفة قال محررها: (مسلكي أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح متحافياً عن التعريض والتلميح وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوي النقد، وأن أبين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ومقاصد أهل الحل والعقد... ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية، أهيج فصالة الدم العربي، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين، ليعلم قومي أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ومالاً منهوباً فيطلبوه وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس يشتري بحقوقهم ثمناً قليلاً)^(٢).

وكان شكري غانم يكتب في الصحف الباريسية ويبين آراءه في السياسة العثمانية الخارجية والداخلية. وكان يحلل الحوادث، ويورد الأخبار عن تعصب الترك لعنصريتهم، ومحاولتهم تترك العناصر غير التركية، وحكم الدولة حكماً مركزياً، وحرمان تلك العناصر من حقوقها^(٣).

(١) المقتبس - عدد ٢٠ - بتاريخ ١٢/١/١٩٠٩ نقلا من كتاب: تطور الصحافة السورية - جوزيف الياس - ٩٩.

(٢) صحيفة مصر - العدد الأول - ٢٤ كانون الأول عام ١٨٧٩. نقلا من كتاب: الاتجاهات الفكرية عند العرب - علي المحافظ - ٣٠.

(٣) العرب والترك - توفيق برو - ١٥٠.

وجميع مقالات شكري غانم الصحفية تركزت على مطالب الجمعيات القومية العربية، ومن مقالات شكري غانم: (لم يهتم الترك منذ أن استولوا على البلاد العربية وعلى الخلافة بالتفاهم مع العناصر التي يحكمونها، ولا سيما العنصر العربي. وقد جعل هذا العنصر بعد ثورة ١٩٠٩ يشكو من سوء ما يعامل به، وكيف أن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم...)^(١).

لقد حدثت بعد إعلان الدستور حربٌ بين الصحف التركية والصحف العربية، مما جعل بعض الصحف العربية تفسح المجال لكتاب العرب الذين يهاجمون حكومة الاتحاد والترقي، ويطالبون بتأسيس الجمعيات القومية. ومن تلك الصحف (مجلة المنار) والتي يصدرها رشيد رضا، وتعتبر الناطقة بلسان الجمعية اللامركزية. فأصدرت حكومة الاتحاديين مذكرة توقيف بحقه، نشرها في (المنار) بهذا النص: مذكرة أخذ وقبض بحق الشيخ محمد رشيد رضا.. الفار إلى مصر، وصاحب و محرر جريدة (المنار) الهديانية، والمظنون عليه بالتجاسر على نشر مواد الخيانة المعلنة في الورقة المذكورة^(٢).

وقد صرحت بعض الصحف القومية بنقد حكومة الاتحاديين، كما في المقال الصادر في صحيفة (دليل حمص)، ومما جاء فيه: ليس من عربي في سورية يجري فيه دم آبائه وأجداده يتقاعس عن طلب الإصلاح، إن السوريين يريدون

(١) معضلة الشرق، أو الأقطار العربية الحرة-خير الله خيرالله-٤٢.

(٢) المنار-مجلد ١٢-الجزء ٩-أكتوبر ١٩٠٩-ص ٧١٦.

أن يحيا، وليس من حائل يقف في سبيل مطالبهم الحققة .. بلاد العربية تتجاذب أصداؤها مرددة طلب الإصلاح^(١).

وتؤكد صحيفة (المقتبس) على حقوق العرب، ومن أمثلة ذلك مقالها بعنوان: (الترك والعرب) عام ١٩٠٩ (١٣٢٧هـ)، وفيها مطالبة بمساواة العرب بالأتراك، وإعادة حقوقهم المغتصبة في العهد البائد، وأتبع ذلك في عام ١٩١٠ (١٣٢٨هـ). بمقالة هي (الترك والعرب) وفيها يدعو المقال إلى وحدة العناصر وينبه إلى أن جرائد العاصمة — الآستانة — تكتب ضد العرب^(٢).

ولتضامن الصحف وتأييدها للجمعيات القومية، ما اتخذته بعض الصحف من إجراءات حينما يتعرض بعض أعضاء الجمعيات القومية، أو الجمعيات القومية نفسها لأذى، فحينما رفضت حكومة الاتحاد والترقي مطالب جمعية بيروت الإصلاحية، واعتبرت الجمعية غير قانونية، في عام ١٩١٣ (١٣٣١هـ) صدرت جميع الجرائد بيروت، وعلى صفحاتها الأولى قرار الوالي بإلغاء الجمعية وإقفال النادي، ضمن إطار أسود دلالة على الحداد، وتركت الصفحات الأخرى بيضاء^(٣).

ويؤكد أعضاء الجمعيات القومية في خلال حكم جمعية الاتحاد والترقي، بفتح باب الحرية أكثر في المجال الصحفي، وقد صدر قانون الصحافة العثماني في

(١) دليل حمص عدد ٨٠ - بتاريخ ٢٣/٤/١٩١٣. نقلا من كتاب: تطور الصحافة السورية - حوزيف إلياس - ٩٩.

(٢) المقتبس - العدد ١٨ - بتاريخ ١٠ كانون الثاني - ١٩٠٩.

(٣) نشوء القومية العربية - زين نور الدين زين - ٩٩.

أواسط عام ١٩٠٩ يقضي بأحكام مختلفة على كل صحفي يهين السلطان أو القناصل أو السفراء ... بمُدَد من الحبس تختلف بين أسبوع أو ١٥ يوماً إلى ستة أشهر، مع غرامات نقدية، كما كان من مواد القانون مادة تقضي بالتعطيل لمدد مختلفة. وقد تكون لأجل غير مسمى^(١).

لقد طالب أعضاء الجمعيات القومية العربية: بأن تباح لهم رواية الأخبار وترديد صدى الأفكار، والنظر في شؤون أنفسهم من إلقاء درس مفيد وعرض مقترح جديد ونقد عامل وعمل، والبحث في كل ما من شأنه أن يلذ ويهذب ويفيد. وعلى الجملة إطلاق الحرية إلى ما لا يفضي بها إلى الفوضى^(٢).

وفي الجانب الآخر انحازت أكثر الصحف العربية في تأييد حزب (الحرية والائتلاف) المعارض لجمعية الاتحاد والترقي، فقد نشرت صحيفة المقتبس مقالة لشكري العسلي، بعنوان: (حزب الأحرار المعتدلين) وفي هذه المقالة يشرح شكري العسلي مواد نظام الحزب، ويعلق عليها. وفي مقالة أخرى بعنوان (الحزب الجديد) بقلم حقي العظم — أحد مؤسسي حزب اللامركزية — وفيها تعريف وافي بحزب (الحرية والائتلاف) ودفاع عن خطته وسياسته، فكان مما قال: (قد يسر الله لهذه الأمة حزب الحرية والوفاق أو حزب الأحرار المؤتلف لتكون مخلصاً للأمة والوطن من الاستبداد الذي خلف استبداد عبد الحميد)^(٣).

(١) انظر: الأهرام-العدد ٩٥٤٨-١٢/٨/١٩٠٩ و ٩٥٩٥-٦/١٠/١٩٠٩. نقلا من: العرب والترك-١٥٥.

(٢) الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده-سليمان البستاني-٣٣.

(٣) صحيفة المقتبس-عدد ٨٤٥-بتاريخ ١٢/٨/١٩١١. نقلا من كتاب: تطور الصحافة السورية-جوزيف الياس-١١٦.

ولبيان منهجية بعض الصحف المؤثرة في تأسيس الجمعيات القومية، أئين نموذجاً منها وهي صحيفة (المقتطف)، التي تعتبر من أبرز صحف الجمعيات القومية العربية، وذكر محرروها سياسة المجلة: الأوربيون أنفسهم على كثرة المتعلمين منهم ورواج الكتب العلمية عندهم رأوا أن لا بد لهم من إنشاء جرائد علمية تذيب المعارف بين الخاصة والعامة، وتنشر أخبار العلماء وتحقيقاتهم حال حدوثها.. وقالت مجلة المقتطف: وقد اقتدينا بهم في ذلك منذ ١٩ سنة فأنشأنا المقتطف واعتنينا اعتناءً خاصاً بنشر ما ليس في كتبنا العربية... فتجد في كل جزء منها - المقتطف - شيئاً من نتائج ما حصلناه بالدرس والتدريس.. وما حصله أشهر علماء الأرض في آسيا وأوروبا وأمريكا وما كتبوه وخلصوا به ذكرهم^(١).

لقد نهجت مجلة المقتطف المنهج القومي العلماني، حيث كانت أفكار مؤسسيها الماسونيين القوميين النصاري ظاهرة عليه، وهم شاهين مكاريوس، وفارس نمر، وتعتبر (المقتطف) من أكثر المجلات الصادرة عن خارج سيطرة الدولة العثمانية، تأثيراً في تأسيس الجمعيات القومية العربية.

وحيثما تقدم (المقتطف) في مقالاتها عن الثورات الغربية، والثناء على مؤسسي الثورات والجمعيات في الدول الغربية، فإنها تؤكد على مبدأ الاقتداء بهم والسير على منهجهم. كما تقول في أحد مقالاتها: ومن يطالع (المقتطف) وهو جالس في بيته وبين أهله يجد فيها مقالات غلادستون التاريخية، ثمرة ذلك

(١) المقتطف- الجزء ١٢- من السنة ١٨- سبتمبر ١٨٩٤- ص ٧٩٢.

العقل العظيم، الذي يدير الممالك كما يدير الريان السفينة، وقد أفرغ فيها نتائج درسه وبجته مدة ٧٠٠ عاماً^(١).

واتبعت الصحف القومية أسلوب الترجمة لكتب تختار بعناية ثم نشرها في الصحف، مثال ذلك كتاب (التحفة الأدبية) للدبلوماسي المفكر الفرنسي هنري غيزو الذي ترجمه ونشره أعضاء الجمعية السرية، والكتاب من الغلاف إلى الغلاف يدعو إلى نظام سياسي متقدم نسبياً خصوصاً على الصعيد الديمقراطي^(٢).

وتضفي مجلة (المقتطف) عبارة الثناء والمدح على علماء وقادة الشرق والغرب، من الملاحدة والكافرين كأرسطو طاليس وأفلاطون وكنت، ونيوتن وبونابرت^(٣).

لقد أيقظت الصحافة الأذهان، وحملت إلى قرائها لواء الدعوات السياسية والفكرية المختلفة: التجزئة والوحدة الوطنية والإقليمية... والقومية العربية^(٤). وغير ذلك من الموضوعات السياسية الحساسة، التي كانت تتناول الوضع السياسي والوطني السائد في ذلك العهد. ونشأ عن التفاعل بين الحركات الوطنية والتقدمية في العالم سلسلة من الكتب والأبحاث، نقلت إلى المجتمع العربي

(١) المصدر نفسه.

(٢) صحافة الكواكبي - جان دايه - ٣٢.

(٣) المقتطف - الجزء ١٢ - من السنة ١٨ - ١٨٩٤. وانظر: الجزء ٧ - السنة ١٨ - سنة ١٨٩٤.

(٤) الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة - علي المحافظ - ٣٠.

أفكاراً ومبادئ جديدة عليه^(١). ولهذا كان المراقبون في الدولة العثمانية يهتمون اهتماماً خاصاً بالصحافة والطباعة، ويخضعونها — على الدوام — لمراقبة دقيقة وصارمة. ما كان يسوغ لجريدة تنشر كلمة واحدة، ولو كانت في باب الإعلانات، دون أن تحصل على موافقة الرقيب الدائم^(٢).

السبب الرابع: دور نصارى العرب في نشأة الجمعيات القومية:

يلاحظ في تاريخ تأسيس الجمعيات القومية العربية الدورَ البارزَ الذي قام به^(٣) نصارى العرب، وقد كان النصراني يشعر دوماً بأنه واحد من (رعايا) السلطان وأن الحكومة التركية لا يمكن لها أن تكون حكومته^(٤).

ما من صلة دينية، ولا صلة قومية تصل النصراني العربي بالدولة العثمانية. وكانت المدارس الأجنبية خاصة تبعد تلاميذها النصاري عن تاريخ العرب وتاريخ العثمانيين على السواء، وكانت توحى إليهم أن لا يبالوا بتاريخ يهم المسلمين وحدهم^(٥).

ويرى مدير القنصلية العامة الفرنسية في بيروت أن واقع نصارى العرب في الدولة العثمانية كان من أبرز الدوافع لتأسيسهم جمعيات على أسس قومية

(١) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية-وليم الخازن-٢٢٦-دار المشرق-بيروت-١٩٧٩.

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-٨٨.

(٣) عن دور نصارى العرب في تأسيس الجمعيات: انظر: سقوط الدولة العثمانية-مجدي الصافوري-٢٢٣-٢٣٤.

(٤) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٠.

(٥) القومية العربية-مصطفى الشهابي-٤٣.

عربية، وذلك في رسالته لوزير الخارجية بباريس، حيث يقول: (لقد تحمل المسيحيون دوماً، بنفاذ صبر، النير التركي، فسياسة تركيا، التي بسبب روح التعصب وحب الاستفادة كانت تفضل دائماً قمعهم واستغلالهم، مضيقه عليهم الخناق عوضاً عن كسبهم إلى قضيتها عن طريق إشراكهم بحكومتها، لم تكن لتفنعهم بقبول فكرة وطن عثماني، ويُعتَبَر مسيحيو هذه البلاد أنفسهم في حالة عبودية كما يتمنون الاحتلال الأجنبي الذي ينتظرون منه تحريرهم^(١)).

ويعتبر نصارى العرب أول من بدأ في تأسيس الجمعيات على أسس قومية، وأوضحُ برهان على ذلك دورُ بطرس البستاني وناصيف اليازجي، الذي قال عنه أعضاء الجمعيات القومية العربية بأنهما : دعوا إلى التوفيق بين العقائد المختلفة، وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة. لأن المعرفة تؤدي إلى الاستنارة العقلية، والاستنارة العقلية تؤدي إلى القضاء على التعصب وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الدينين^(٢).

لقد اتفق اليازجي والبستاني مع المنصرين في تأسيس الجمعيات القومية العربية، كجمعية (الآداب والعلوم) ، (الجمعية الشرقية) و(الجمعية العلمية السورية)، وشاركوا في ترجمة التوراة إلى العربية، وكان لهما جهود علمية تمثلت في تأليف الكتب المختصة لتستعمل في المدارس التنصيرية، وإلقاء المحاضرات في الجمعية الأدبية التي حثا الأمريكان على إنشائها، وكتابة النشرات لهذه

(١) بلاد الشام-وجه كوثراني-٢٥٤.

(٢) يقظة العرب-جورج انطونوس-١١٤.

الجمعية^(١). التي تضرب على وتر الوحدة الإسلامية والمسيحية من الوجهة الوطنية والقومية^(٢).

وعلى آثار اليازجي والبستاني في تأسيس الجمعيات القومية العربية، سلك نصارى العرب، أمثال: ندره مطران في المشاركة في تأسيس جمعية بيروت الإصلاحية، ونجيب عازوري في تأسيس جمعية رابطة الوطن العربي، وأسعد داغر في المشاركة في تأسيس المنتدى الأدبي، وإسكندر عمون نائباً ومشاركاً في تأسيس حزب اللامركزية وميشيل عفلق تأسيس حزب البعث. الخ.

وقد أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية، على أن تأسيس جمعية بيروت السرية يعتبر أول محاولة لإثارة الفكر القومي، وكان الذي تولى نشأة جمعية بيروت السرية نصارى العرب الذين درسوا في الكلية السورية — الجامعة الأمريكية —^(٣).

ومن أبرز مساعي نصارى العرب، المطالب التي قدمها نصارى العرب في جمعية بيروت الإصلاحية، للقنصلية الفرنسية العامة في بيروت، بعد أن بينوا — كما في رسالتهم — ما سموه التعصب الديني بين المسلمين (الأثراك) وبين النصارى. ولهذا كان من أماني النصارى في سورية (إن نصارى سورية مرتبطون

(١) يقظة العرب-جورج انطونيوس-١١٢-١١٣. وانظر: ١-رواد النهضة الأدبية-كمال اليازجي-٩٠.

الفكر العربي في عصر النهضة-ألبرت حوراني-١٢٧.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٩٤.

(٣) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٦٠.

بفرنسا ارتباطاً نهائياً وهم لا يمكنهم إلى الأبد أن ينسوا ما يدينون به من إكبار لعظمتها وحضارتها ومن اعتراف لعطفها عليهم أيام الشدائد. إن « الأمنية الكبرى » لمسيحيي سورية هي بسط الحماية الفرنسية على سورية .. وإما الحكم الذاتي لولاية بيروت تحت حماية فرنسا ورقابتها الفعليتين..^(١).

ومن أمثلة التعصب الديني الذي ذكره نصارى العرب ما وقع عليهم في حرب البلقان^(٢)، حيث قالوا عن هذه الحرب: (إن الحرب البلقانية حرب دينية، حرب صليبية، حرب الصليب ضد الهلال، حرب المسيحية المتحالفة ضد الإسلام. من هنا، لا يستبعد أن يعتقد المسلمون أن وجود المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية هو السبب الرئيسي في انحطاط وانحزام الأتراك. وتصل عقلية المسلمين في الواقع إلى حد اعتبار المسيحيين المسؤولين الفعليين عن المصائب التي تحل بالإمبراطورية، إلى حد اعتبارهم الأعداء الحقيقيين).

وإضافة الصبغة الدينية في حرب البلقان، وأن المسلمين (الأتراك) قد استغلوا الحرب لإبادة النصارى عموماً ونصارى العرب خصوصاً، كما في رسالة الأعضاء النصارى لجمعية بيروت الإصلاحية، يخالف كتابات من حضر الحرب وعاش الآثار المترتبة على الحرب البلقانية، الذين ذكروا أن منشورات

(١) بلاد الشام-وجيه كوثراني-٢٧٢. وانظر: المارونية في لبنان قديماً وحديثاً-٣٦٨.

(٢) انظر: ١- تاريخ حرب البلقان الأولى والثانية-يوسف البستاني-٣٣ وما بعدها-مطبعة الهلال-القاهرة.

٢- العرب والترك-توفيق برو-٣٣٨.

٣- تاريخ الدولة العثمانية-علي حسون-٢٨٤.

رسمية ظهرت قبل الحرب، من قبل ملوك البلقان، تصف الحرب البلقانية بأنها حرب الصليبية^(١).

وحينما دخلت الجيوش البلقانية إحدى الولايات العثمانية فاتحين مشى فيها كبار رجالهم الدينيين بملابسهم المذهبة التي يترنون بها في الحفلات الدينية الكبرى. وفي مقابل ذلك رفض السلطان العثماني إعلان الجهاد، ووجدت الدولة العثمانية جنوداً من رعاياهم البلغار والصربيين واليونانيين، فإنها ظنت أن وضعهم في مقدمة ألوف من المسلمين يضطرهم إلى إطلاق النار على أعداء الدولة، ولكنهم كانوا يطلقون رصاصهم في الفضاء كما قال غير واحد منهم. ولما لاحت بارقة النصر في جانب إخوانهم في الجنسية والدين طاروا إليهم ورموا طرايشهم ووضعوا القبعات على رؤوسهم^(٢).

ولتقرير مبدأ أن الحرب البلقانية حرب صليبية، فقد نشر جماعة من القسس في مقدونيا رسالة قالوا فيها: إن الواجب المفروض على كل (مسيحي) أن يقدم روحاً إسلامية على هيكل الكنيسة، فكان لتلك الرسالة صدى عظيم فأخذ الجنود يعملون بهذه الوصية^(٣). فقال أحد الضباط: إن خير وسيلة لنشر لواء الراحة والسلام في ألبانيا إنما هي إبادة المسلمين فيها، وإلزام عدد من المسلمين أن يدينوا بالنصرانية^(٤).

(١) تاريخ حرب البلقان الأولى والثانية- سليمان البستاني-٦٩.

(٢) المصدر نفسه-٧٥.

(٣) المصدر السابق-١٨٢.

(٤) المصدر نفسه-١٧٨ و١٨٥.

فاستغلال الحرب البلقانية لمبدأ التعصب الديني — كما في رسالة أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية — إنما كان من قبل نصارى البلقان، وليس المسلمين الأتراك.

لقد وجد نصارى العرب مجالاً لتمزيق الأمة الإسلامية، والقضاء على هذا الدين من خلال مشاركتهم في تأسيس الجمعيات القومية العربية، فكان مما قال ندره مطران وهو نصراني وأحد أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية، وتربطه علاقات وثيقة مع أقطاب السياسة الفرنسية^(١) قال خلال انعقاد المؤتمر العربي الأول: عُهد إلي أن أبحث عن الوسائل التي تكفل حفظ الحياة الوطنية ووقاية البلاد العربية العثمانية من المطامع. وربما قصد الذين اختاروا لهذا الموضوع خطيباً مسيحياً أن يصيبوا معه مواضيع أخرى مهمة كبيان تضامن مسلمي ومسيحيي العرب... إن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين، وهي فضيلة الشعوب الحية فضيلة الشعوب التي لا تريد أن تموت . وما زال هذا الولاء مستحكماً بين المسلم والمسيحي..^(٢).

ومن المنطلق القومي رفض أعضاء الجمعيات القومية العربية من النصارى، مبدأ الوحدة على أساس الدين الإسلامي، فيقول أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية، من النصارى: لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة على أكتافهم أم على جماجمهم، سواء في سورية أم العراق أم فلسطين أم لبنان أم غيرها، من

(١) المارونية في لبنان قديماً وحديثاً-محمد زعتر- ٣٦٩-الوكالة الشرقية-الطبعة الأولى-١٤١٤هـ.

(٢) المؤتمر العربي الأول-عبد الدين الخطيب-٥٤-٥٨. خطبة: ندره مطران بك.

يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال، بل إنهم جميعاً يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح^(١).

ومسيرة لهذا المبدأ الجاهلي، تبني بعض المسلمين من أعضاء الجمعيات القومية العربية هذا المبدأ، فيقول أحد أعضاء الجمعيات القومية، من المسلمين: (إننا لا نبني نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط، وإنما بنيناها أيضاً على الأساس القومي .. وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة.. وظاهر إن هذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدرًا من نظرية الدم والجنس والدين. لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها، ومستقر بالوطن العربي..)^(٢).

(١) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٤٦.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٩. وانظر: القومية العربية-مصطفى الشهابي-